اقرأ

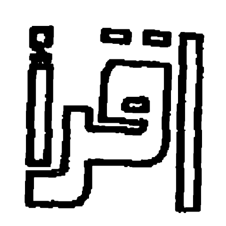
عبدالحليم عباس

أبو نواس



دار المعارف


مكتبة
لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس



[٢١]





عبد الحليم عبّاس



الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بغـــــداد

عن يونس بن عبد الأعلى قال : قال
لى الشافعى يا يونس هل دخلت بغداد
قلت لا . قال « إذن ما رأيت الدنيا »
(تاريخ بغداد الجزء الأول)

فى عام خمسة وأربعين ومائة بعد الهجرة ، انحدر من الهاشمية قرب الكوفة فتى أسمر نحيف القامة مهيب الطلعة ، ثم أصعد فى السهل الممتد بين دجلة والصّراة ، وجاس خلاله يتنسم الأرياح ، ويسائل ساكنى الْبِيَع فى هذه الأمكنة عن موضع صالح يبنى فيه مدينة .

لم تبخل عليه الريح ، ولم يضن عليه ساكنو البيع ، فدلوه على خير مكان فى هذا السهل العريض . فأمر أن تخط على هذه الأرض خطوط من رماد ، ثم يوضع على هذا الرماد حبُّ النفط ، ولما التحمت النار وصارت طرائق نظر إليها وقال : هكذا يجب أن تكون مدينتى .

هذه المدينة هي بغداد ، وهذا الفتى هو رجل بني العباس المنصور ، أما الخطوطُ من رماد ، فهي بعد حين القصور الرحبة ، مدارجها من مرمر ، وسرُرها من عاج ، وستورها من ديباج .

وفي هذه السنة أيضاً — على حدّ بعض الأقوال — ولد في قرية من قرى الأهواز ، لرجل مهاجر من دمشق وفتاة فارسية طفلٌ أسمياه « الحسن » .

قامت مدينة المنصور ، وجيء من الشام وواسط بالأبواب التي توضع على الأسوار كما جيء بأبواب « مدينة الزندور التي بنتها الشياطين[1] » فنعم الخليفة وقرّت عينه ، بعد أن أخافته الهاشمية . فهو الآن بين أنهار لا يأتيه عدوه منها إلا على جسر أو قنطرة كما قال له البطارقةُ أصحابُ البيع . ولكن الأنهار تحمل غير الميرة ، تحمل السنديات والهنديات والجوارى الروميات . والعدو قد لا يجيء على جسر أو قنطرة ، فقد يكون في قلب المدينة . وقد يجيء مع الجوارى الآتيات فلا تستعصى عليه أبواب الشياطين ولا تهدم من تحته القنطرات والجسور .

نما الطفل الذي ولد بالأهواز وترعرع ولكنه لا يزال

---

(١) تاريخ بغداد الجزء الأول

حائراً بين البصرة والكوفة ومضارب الأعراب . تفيض أنهار بغداد فإذا الأرض مخضرة ، و إذا الجنائن مونقة ، والميرة لا تزال ترد ومعها الجليبات من الجوارى ، فتزيد النفوس تهالكاً على الترف وحباً للاستمتاع . ولقداستوفت بغداد كل غناها و بذخها. ولبست حدائقها منتهى حسنها وجمالها . ومشى المترفون إلى أقصى غايات الترف واللهو . فجاءها — فى زمن الرشيد — الطفل الذى ولد بالأهواز بعد أن تبدل اسماً باسم فهو أبو نواس . جاءها ليأخذ مما تأخذبه طبقة المترفين التى يلتحق بها ، و يحرص على أن تكون له بها صلة ، ولما لم يكن به تعفف ولا حشمة ، فقد انطلق مع المنطلقين ، ولها مع اللاهين . وكان به سعار إلى اللذة، فلم تبخل عليه بغداد بلذة تشتهيها نفسه ، أو يصورها خياله . افتنت فى تقديم هذه اللذائذ فافتن فى التغنى بها حتى كاد يلحق أمره وأمر هذه المدينة — لغرابته وطرافته و بالغ ترفه ومجونه — بحديث الأساطير ... أمضى عمره سادراً لا يرعوى ، ومخموراً فى حدائق القفص وقطربل لا يفيق ، والناس من حوله لا ينكرون من أمره كبير شىء ، ولكنهم يعذلونه أن صرح بحديث هذا اللهو والمجون . وأبت عليه ملكته الفنية ، و إيثاره للصدق ، وكرهه

للرياء ، إلا أن يجهر به و يصوره على حقيقته وواقعه .

ودع التستر والريا ء فما هما من شانيه

لم يكن هذا الفتى بدعاً فى عصره ، ولكن عصره كان بدعاً فى العصور . فلم ير العرب لهم من قبل مملكة كهذه تمتد غرباً فتضم فى طريقها الشام ومصر ، ثم تلتهم شمال افريقية حتى المحيط ، و يظلل جناحها الممتد إلى الشرق ممالك ودولاً حتى الهند والصين ، ويدين لها فى الشمال والجنوب أجناس مختلفة وعروق متباينة . . . وتتضافر هذه الدنيا على إسعاد مدينة بغداد فترسل إليها ذهبها وفضتها ، ومن ترفها ومجونها ألواناً جديدة لم يسمع بحديثها الناس ، والناس فى هذه المدينة عجيبة من العجائب . فليسوا إلى أمة واحدة و إنما هم إلى أمم مختلفة المشارب ، متباينة العادات . فهم فرس وعرب وكرد وترك وسريان وهنود . وهم بيض وصفر وسمر وسود . وهم مسلمون ونصارى و يهود ومجوس . وهم غير هؤلاء أجناس وطوائف وأديان لا تدخل تحت حصر . . . وكل هؤلاء تضمهم المدينة المسوّرة التى قال بُناتها : لا يأتيها العدو على جسر أو قنطرة « بين دجلة ودجيل تقع المدينة التى تجبى لها كنوز الأرض وتجمع إليها كل إنسان ،

وهى أسرع ذهاباً فى الأرض من الحديدة المحماة[١] » .

هل استوفت المدينة كل حظها ؟ ؟ لا ، فلا يزال فى نفوس أهليها الفرس والعرب بقية من ورع ، وفضلة من تعفف وخلق محتشم . فليجئها مع كل هذا آراء وأفكار ، وكتب مخطوطة تهون أمر الورع ، وتحل من قيد الخلق المحتشم . . ثم توفى — الرشيد — وجاء الأمين « وكان الترف فى القصور إغراقاً فأصبح شذوذاً وانحرافاً » ، فتفتحت أبواب القصر لطائفة أخرجتها الغواية عن كل عرف ، وحلتها من كل قيد . وكان من بينها رجلنا المخمور فى حانات بغداد ومنازه دجلة والفرات ، فشدا مع الشادين ولها مع الماجنين العابثين .

ولكن الخمر التى أدمن شربها صرفاً وممزوجة قد فعلت بصحته فعلها . وشهرته السيئة قد جعلت سيده رب القصر يتحاشاه ، بل يضيق عليه ، ويباعد ما بينه وبينه . وكأنما أحس أن مرابع لهوه ستأخذ من بهجتها الفتنة ، وتأتى على جمال بغداده الحرب المنطلقة فأغمض عينيه فى عام سبعة وتسعين ومائة ومات[٢] .

---

(١) حديث ضعيف

(٢) ماورد بهذا الفصل من أساطير وحقائق فعن تاريخ بغداد للخطيب

جوار وخمور وأشياء بينهما

قد يثرى العصر، وتصح سياسته ، وتنشط فيه الحركة العلمية والأدبية ويمد لهما فى الحرية ، ولكنه ليس بالعصر العباسى إذا لم يدخلَ فى حسابه حديث الجوارى ومجالس الشراب ، وما يتصل بهما وما يمت إليهما من غناء وطرب ، وما يتبع الغناء والطرب . فلقد كثرت الجوارى فى هذا العصر ، وكثرت الخمر وازداد شاربوها وشاع الغناء وافتتن الناس فيه . وقارىء أدب هذا العصر لا يزال يقع على مجالس شراب ، ويهفو سمعه لغناء مستطاب ، وتطالعه فى كل حين وجوه جوار سافرات أو منتقبات، والشراب والغناء من مستلزمات الترف والثراء . أما الجوارى فهن يتبعن هذين ولكن لا بد من أن يمهد لهن سبب آخر . فما هو ؟ ؟

جاءت الجوارى وعرفهن العرب مع الفتح . وساعدت حالة الثراء والاستقرار فى عهد الرشيد على الإكثار منهن حتى بلغن فى قصره « ألفين » كما روى صاحب الأغانى . وغالوا بهن حتى بذلوا فيهن عشرات الألوف من الدنانير فقد اشترى الرشيد واحدة

بمائة ألف دينار . وأوقر الأمين زورق عمه جعفر الهادى ذهباً ثمناً لجاريته « بذل » التى لم تطب نفسه عنها هبة أو بيعاً ، فأخذها الأمين مع هذا الثمن على حال تشبه الغصب . والجارية تقوم بما لا تقوم به «الحرة» . فقد يكفى هذه محتدها ونجارها ، أما تلك فلا بد من صفات وخلال تعلو بها . وهذه الصفات والخلال ترجح فى الميزان على صفات « الحرة » وخلالها . فأول ما يطلب من الجارية الحذق فى الغناء ، وإذا حذقت الغناء فقد اتصلت بالأدب ، وروت الأشعار . وقد يصل التثقيف بالجوارى إلى حد أن ينظمن الشّعر ، ويجارين بعد ذلك فحوله كما كانت تصنع عنان جارية الناطفى . فلها مساجلات مع شاعرنا النواسى ، ومروان ابن أبى حفصة . وقد ذكرت كتب الأدب أنه دخل عليها هذا مرة ومولاها يضربها فارتجل قائلا :

بكت عنـــان فجرى دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه

فأجابته على البديهة :

فليت من يضربها ظالمــاً تجف يمنـاه على سوطه

ويظهر أنه كان لعنان هذه ما يشبه الصالون يجتمع فيه رجال الفكر والشعر ، ورواد اللهو والاستمتاع ، وتجرى فى ندوتها

مطارحات في الأدب . . . . وفى الغزل مجمجمة حيناً ، سافرة أحياناً . وحديث هذه المجالس يذاع و ينشر حتى يصل إلى قصر الرشيد فيرغب إلى مولاها فى شرائها ولكنه يشتط فى الثمن . ومثل عنان هذه فى الثقافة ورواية الشعر «عُريب» جارية المأمون، و «دنانير» جارية يحيي بن خالد ، وعشرات مثلهن حذقاً فى الغناء و براعة فى الشعر . وألوف دونهن فى هذا و إن لم يكنّ دونهن فى الظرف والحسن ولين الكلام .

حدث محمد بن مزيد عن أحمد بن صدقة قال : « دخلت على المأمون فى يوم الشعانين و بين يديه عشرون وصيفة رومية مزنرات قد تزينّ بالديباج الرومى ، وعلّقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهنّ الخوص والزيتون . فقال لى المأمون : ويلك يا أحمد قد قلت فى هؤلاء أبياتاً فغنّنى بها ثم أنشدنى :

ظبـاء كالدنانير مـلاح فى المقاصير
جلاهن الشعانين علينـا فى الزنانير

فحفظتها وغنّيته فلم يزل يشرب والجوارى يرقصن بين يديه أنواع الرقص من « الدستبند إلى الايلا » حتى سكر فأمر لى بألف دينار ، وأمر بأن ينثر على الجوارى ثلاثة آلاف دينار . »

هذا مجلس ومثله عشرات المجالس .

وأصبحت التجارة بهؤلاء الجوارى شيئاً رابحاً . فعمل أصحاب هذه التجارة على جلبهن من سائر أطراف المملكة متعددات الأجناس والألوان . وكان منهن الجوارى اللاتى نشأن فى البصرة والكوفة والحجاز ، وعرف الناس والشعراء خاصة لكل جنس جماله الذى يمتاز به . فهاك ما يقوله النواسى فى جارية رومية .

أبصرت فى بغداد روميه تقصر عنها كل أمنيه
قصرية الطرف وشامية ال خلوة فى نكهة زنجيه
صفدية الساقين تركية ال ساعد فى قد طخاريه
هندية الحاجب. نوبية ال فخذين فى زهو عباديه
حيرية الحسن كيانية ال أرداف فى لية عاجيه

ودخلت هؤلاء الجوارى الخدمة العامة . وفى أشعار النواسى ورفاقه ما يدل على أن تلك الحانات التى كانت تفتح لهم أبوابها فى أنصاف الليالى كان يقوم على الخدمة فيها جوار يحسن مع بيع الخمر بيع الصبابة والغزل .

فما عسى أن تصنع هـذه المغريات فى أعصاب أبى نواس ، الذى لم تعنه النشأة الأولى على سـلوك الطريق الوسط فى الحياة ، لقـد تغزل بالجوارى ، وذكر منهن فوق العشر ،

وشبب بدنانير، وأحب جنان، وتغزل – ولم يسم – بكثير غير هؤلاء. ويقال إن عنان غلبته فى مجال الأدب المكشوف. ولم يستغرب الناس ولم يستكثروا من جارية أن تغلب شاعراً خليعاً فى أدب عار مفضوح . .

أما الخمور فقد عرفها العرب وافتنّوا فيها – فى الجاهلية والإسلام – وذكر صاحب نهاية الأرب أن أنس بن مالك قال : « حرمت الخمر ولم يكن للعرب عيشٌ أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر » ولما أنزل التحريم امتنع العرب عن شربها . وكان شاربها يتستر فى أمره ، فإن ظهر حُدّ ، و بقى الأمر كذلك حتى جاءت الدولة الأموية فشربها بعض خلفائها ، واشتهر بشربها الوليد ويزيد . ولكن أمرهم فى شربها بقى يروح بين التستر والظهور ويحمل – دوماً – على محمل الغرابة والاستهجان، حتى جاء الدور العباسى . فلها عنها المنصور بإقامة الدولة ثم شربها الهادى . أما المهدى فإنه و إن لم يشربها فقد عفا عمن شربها . ذكر صاحب العقد « أن ابراهيم بن هرمة سأله أن يجعل جائزته كتابته إلى عامله على المدينة أن لا يحده على شراب . فاستهول تعطيل حد من حدود الإسلام ثم كتب لعامله « من جاءك

بابن هرمة فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين » . . فكان ابن هرمة يقول : أين من يشترى الثمانين بمائة .

شغف الناس فى هذا العصر بالخمر ، ثم شغفوا معها بأكثر من ذلك فقد أغرموا بالنقاش فى تحريمها أو عدمه . والأدباء والشعراء وإن لم يجيزوا لأنفسهم ما أجازه ابن قتيبة بعد ذلك من القول فى كتابه الأشربة « من أن المحرم بالسنة فيه فسحة كالقليل من الديباج والحرير ومن الخمر غير خمر العنب لم تمسه نار » . أجازوا لأنفسهم شربها والجهر بالوله بها . . . بعد أن تعطل أمر إقامة الحد فيها .

ومع الخمر والجوارى يجيء الغناء . فقد ملأ القصور والدور وأحكمته الصنعة البارعة ولون الشعر المعجز الذى يتغنون به . فأخرج الوقور عن وقاره . وهل جاء بعد الغناء شيء ؟ ؟ لكم كنا نتمنى أن نقول لا ، ولكن لا هنا غير مستطاعة . فقد جاء الشذوذ الجنسى والميل المنحرف . شاع حب الغلمان . وقد يكون هذا الشذوذ موجوداً بكل مكان وكل زمان ، ولكن الجهر وعدم التستر منه وأن لا يرى فيه صاحبه عاراً ، فتلك حالة لا نقول إنها مقصورة على هذا العصر ، ولكنها أشيع فيه منها

فى غيره من الأعصر. أخرجهم الشذوذ أو أخرج الكثير منهم إلى أن يقيسوا جمال الجارية إلى القدر الذى يشبه فيه جمالها جمال الغلام.

أفديك خذها من يدى وهات عذبنى حب غلاميات

وتغزل بالغلمان غزلاً مكشوفاً جلّ شعراء هذه الفترة ومهما افتتنوا فى الغزل بهم فشاعرهم فى هذا الضرب من المنكر « أبو نواس ».

النـــاس

هم الذين يعنيهم الفضل بن يحيي « زبدٌ جفاء ، وسيلٌ غثاء ، همُّ أحدهم طعامه وشرابه » . فأين مكانهم فى دنيا بغداد ؟

يمرُّ التاريخ العربى بالعصور التى يؤرخها ، فلا يصف إلا ملوكها وقوادها ووزراءها ، وذوى الجاه فيها . وليس هؤلاء أهل العصر ، بل هم جزء ضئيل منه . إن الذين لا يؤرخهم هم أهله الذين يكدّون ألوان الكد ، ليدفعوا ما عليهم من مال ، ويوفوا بما عليهم من خراج ، ليهيئوا لسادتهم العيش المونق ، والحياة الرغدة .

وسبيل الباحث عن هؤلاء الناس أن يقف عند اللمحة التى تمرُّ عرضاً فى كتب التاريخ ، والطرفة التى ترد فى معرض الفكاهة والتندر فى كتب الأدب ، ثم يضم هذه اللمحات ، والفكاهات ،

فيخرج بصورة لهم إن لم تك صادقة الأجزاء ففيها الملامح التى تدل على هذا المخلوق « الذى هو الناس » فكيف كانوا فى هذا العصر الذهبى بين العصور ؟ !

كانوا جهلة فى عهد النهضة العلمية ، وليست هذه الحال بالمستغربة فى عهدٍ لم تنشأ فيه المدارس العامة . فقد روى الطبرى ، أن المأمون أراد أن يلعن معاوية ، فقال له يحيى بن أكثم : إن العامة لا تحتمل هذا ، فركن إلى رأيه ، وحدث به ثمامة أحد المعاصرين فقال له : والعامة فى هذا الموضع الذى وصفها يحيى ، والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، والله ما رضى الله أن سواها بالأنعام (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) ثم ذكر أنه مرّ بشارع الخلد ، فإذا إنسانٌ يبيع أدوية وهو ينادى : هذا الدواء لبياض العين ، والعشا والغشاوة ، والظلمة ، وضعف البصر ، والناس قد انثالوا عليه ، فقلت له : يا هذا إن عينك أحوج اليه فلم لا تستعمله ؟؟ فقال : أنا فى هذا الموضع منذ عشر سنين ، ما مرّ بى أجهل منك ، ثم قال : أين ياجاهل اشتكت عينى ؟؟ قلت : لا أدرى . قال : بمصر . فأقبلت علىّ جماعة فقالت : صدق الرجل . أنت جاهل ، وهمت بى ،

فقلت : لا واللهِ ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، فتخلصت بهذه الحجة . وليست هـذه الحكاية بالمتخيرة من بين تلك الحكايات التى تبين مقدار جهل الناس فى هذا العصر . فقد ذكر فى الجزء الثانى من كتابه حكاية الذى كان يظن أن فاطمة رضوان الله عليها هى زوجة النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر الجاحظ عشرات مثل هذه الطرف .

وكانوا فقراء ، يتعيشون بالنهب ، والسرقات . ونثرت الفتنة فى زمن الأمين ببغداد فاذا آلاف العيارين العراة .

واحد منهم يشد على ألـــــفين عريان ماله من إزار
ويقول الفتى إذا طعن الطعـــــنة خذها من الفتى العيار

ويقول فيهم عمرو الوراق :

عريان ليس بذى قميص يغـدو على طلب القميص

وتكشفت بغداد المترفة عن آلاف مؤلفة من السفلة الرعاع . وآلاف مؤلفة من الشطار الذين لا يملكون من أسباب العيش غير أدوات الجريمة .

ليس له مال سوى مطرد مطرده فى كفه رأس ماله

أين كانت هذه الآلاف ؟ كانت ببغداد ذات الخمور والقيان والكواعب والغلمان ، إن هؤلاء الناس حجزتهم الحكومات

القوية وزواهم الجهل والفقر عن أعين المؤرخين فى غير أوقات الحروب التى يساقون فيها للذبح ويقدمون قرابين رخيصة أو غالية على مذبح المرّيخ .

يقولون إن الأديب يمثّل عصره . فهل مثّل شاعرنا النواسى هؤلاء وهو من أكابر أدباء هذا العصر ؟ لم يمثّلهم هو ولا مثّلهم غيره . لم يعرف النواسى من الناس فى عصره إلا من هم « على رأس الهرم » كما يقولون . أما الناس الآخرون فلم يعرفهم فلندعهم لحديثهم يطول ، ولنسر مع شاعرنا المفتون ببغداد غير بغداد الناس من مجلس قينة إلى ظل جارية إلى حديث شراب .

نسب الشاعر ونشأته الأولى

ولد فى عام خمسةٍ وأربعين ومائة ، وإن شئت ، نزلت بهذا العام إلى ستة وثلاثين أو صعدت به قليلاً إلى تسعة وأربعين بعد المائة ، ولك فى هذا حجتك من أقوال المعاصرين وغير المعاصرين ممن كتب عنه . ولا تستطيع أن ترجح روايةً على روايةٍ لأن أكثر من روى عاماً روى غيره ولم يرجح . وكما تختلف السنة التى ولد فيها ، تختلف البلدة . وقصارى ما يستطيع الباحث أن

يقول إنها فى الأهواز . وهو يأخذ بهذا القول لا على سبيل التحقيق، ولكن برأى الكثرة التى كتبت عنه ، و إن كان هنالك من يقول إنه ولد فى البصرة . وسيان ولد بهذه أم بتلك ، فلم يعرف له موطناً إلا هذه الأخيره . والذين يقولون إنه ولد فى غيرها يذكرون أنه جاء اليها مع أهله طفلاً فى الثانية أو السادسة من عمره . ففى البصرة أمضى سنى الطفولة والشباب ، وأقام بها حتى الثلاثين من عمره . يقول ابن قتيبة : « وكان بصرياً » ويقول هو :

وإن أكُ بصرياً فان مهاجرى دمشق ولكن الحديث شجون

وأمّه جُلَّبان « امرأة فارسية » لا اختلاف فى اسمها وعُجمتها . و إن اختلفوا فى صنعتها . فهى تصنع الخيزران، وهى تحوك الثياب. ومن هنا نعلم أنها صَنَاع اليد . وأبوه هانىء أو هنىء من دمشق من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . جاء الأهواز للرباط ورأى جُلَّبان على ضفة نهر من الأنهار ، فأعجبته ملاحتها فتزوجها. ولا سبيل إلى معرفة أى عمل آثر هذا الدمشقى بعد انحلال جند مروان ، وانتقال الملك إلى بنى العباس . ولكن صناعة الحياكة ورعى الغنم تتردد فى جُملٍ مبهمةٍ ، وعلى ألسنة شانئى فضل ولده .

وحفظ هذا الجندى من جملة ماحفظ من أخبار أهله فى الشام أنهم من أصل يمنى ، ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة ، إحدى أفخاذ قبيلة مذحج ، ولعله ذكر أيضاً أن جدّه من رجال الأمير الجراح ، فقال الناس إنه مولًى لهذا الرجل الكبير الذى يصفه التاريخ بالصلابة والشدة وحُسن الاستقامة فى ولايته . ولم يعينوا نوع هذا الولاء ، والأرجح فيه أنه من الولاء الذى يتقرب فيه العرب بعضهم من بعض بالجوار أو الحلف أو الإحسان . وقد دعا النواسى نفسه مولى للفضل بن الربيع حينما أحسن اليه وأطلقه من السجن .

أصبحت غير مدافع مولاكا والحظّ لى فى أن أكون كذاكا

ولا شىء يمنع من تصور هذا . فالجراح كان فى الشام قبل أن يغادرها والياً على أرمينية ، ومقاتلاً فى بلاد الترك، حيث استشهد. فليس من المستبعد أن يكون أهل هذا الجندى تقربوا اليه باليمنية ، ولازموه ليتقوا به ، وليكونوا منه بموضع بره وإحسانه .

ولم يك هانىء بحاجة الى أن يكثر من حديث هذه اليمنية والفخر بها . وليس مضطر به فى الحياة مما يحتاج إلى ذلك . ولكن الابن اضطرّ الى جعلها من المتممات فهو الحسن بن هانىء الحكمى وله يقول والبة :

يا شقيق النفس من حكم   نمت عن ليــلى ولم أنم

وضاقت الأهواز بهذا الدمشقى فجاء البصرة العامرة ، يحمل هــذه الأسرة التى هى جُلبــان وابناه الحسن وأبو معاذ ، واستوطنوها دار إقامة . ولما كبر طفله الحسن وأصبح بحاجة إلى التعليم ، لم يضن عليه به وأخذه إلى من يقرئه القرآن ، فحذقه ومهر فيه حتى أصبح موضع إعجاب مقرئيه . غير أن الدهر لم يدعه ينعم بطفولته . فقد توفى فى غضونها أبوه ، وكانت الأسرة من رقة الحال بحيث احتاجت إلى معونة ولدها بعد أن تعدى دور الطفولة فوضعته أجيراً عند عطارٍ فى أسواق البصرة .

هذا هو النواسى فى أسرته . لا تستطيع أن ترتفع بها ، ولكنك تستطيع أن تنزل بها دركات ، وهى — كما ترى — أسرة فقيرة ربة الأسرة فيهــا فارسية وربُّها عربىٌّ أصله من دمشق وقبيلته يمنية . وأبو نواس يعرف أن مثل هــذه الأسرة لا يستطيع أحد التحدث عنها بَلهَ الفخر والمباهاة بها . فقد ذكروا أنه أمضى عمره يتستر على نسبه . فإذا لزّه « أبان » فى الهجاء من ناحية أمه وأبيه وقال له :

هانىء الجون أبوه   زاده الله هــوانا
سائل العباس واسمع   فيــه من أمك شانا

وإذا أوجعه الرقاشى من ناحية نسبه بمثل قوله :

نبطىٌّ فاذا قيل له أنت مولى حكم قال أجلْ

هجاهما بمثل ما هجواه به ، وأوجعهما كما أوجعاه ، ولكنه لم يجد فى باب الفخر أكثر من قوله :

إن تهجنى تهج فتىً ماجداً لا يرفع الطرف الى مثلكا

وتمرُّ بديوانه فلا تجد فيه ذكراً لأمه وأبيه ، والفخر بهما أو بأبيه كما يصنع غيره من الشعراء . وهو إما أن يكون آثر الصدق فسكت ، أو خشى الفضيحة فلم يجر لسانه بشىء من ذلك. وأبو نواس بطبعه يكره الفخر والتعاظم بالجدود . وقد يكون من جملة البواعث على هذا الكره عدم قدرته على الفخر ، لأننا نجده يفخر باليمنية ويعتز بها :

وقال أمن تميم قلت كلا ولكنى من الحى اليمانى
بلى فازدهتنى للصبا أريحية يمانية إن السماح يمانِ
بل نحن أرباب ناعط ولنا صنعاء والمسك من محاربها
ونحن إذ فارس تدافع بَهْـــــرام قسطنا على مرازبها
فافخر بقحطان غيرِ مكتئب لحاتم الجود من مناقبها

ويفخر بنفسه قليلاً :

وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبى نواس

ولو لم أرث فخراً لكانت صيانتى فمى عن سؤال الناس حسبى من الفخر
فلا يطمعن فى ذاك منى سوقة ولا صاحب التاج المحجب فى القصر

والفخر بالقبيلة هو فخر عام . والقحطانية ليست بأسرة و إنما هى عصبية . والذى يفخر بها و بنفسه يلذ له — ولو فى وقت الحاجة — أن يفخر بأسرته . على أن هنالك من يدفعونه عن اليمنية و يوردون تأييداً لدعواهم هجاءه إياها . ولا شك أن الذين يدفعونه عن هذا النسب هم المضريون الذين أوجعهم هجاءه ، و إلا فهجاؤه لليمن وحده لا يكفى إذا فُهم على حقيقته ، ونظر فيه إلى طبيعة النواسى الساخرة ، فهو قد مدح هاشم بن حديج اليمنى ، وجاءه راغباً فخيب ظنه وزاد بأن فخر بقبيلته كندة :

رأيتك عند حضور الخوان شديداً على العبد والعبده
وتحتد حتى يخاف الجليس شذاك عليــه من الحده
وتختم ذاك بفخر عليــه بكندة فاسلح على كنده

وكندة ليست كل قبائل اليمن ، و إنما هى واحدة من كثيرات . فلو هجاها رجل من مذحج ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة أيبرأ من يمنيته ؟؟ ثم عير ابن حديج بقتل محمد بن أبى بكر فذكر قبيلة مضرية هى قريش

وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
فلو شهدته قريش البطاح لما محشت ناركم جلده

وليس فى هذا ما يجعله متذبذباً فى نسبه .

ويظهر أن هاشم بن حديج أخرجه الهجاء عن طوره فأخذ يشتم قبيلة النواسى واحدة بواحدة :

أتشتم خير ذى حكم بن سعد لقد لاقيت داهية تؤادا

ويفىء النواسى إلى رضاه فيعتذر إلى ابن حديج الاعتذار المخلص الذى فيه أكبر الدلالة على أنه كان يمنياً حقاً ، وأنه إن أخرجه الغيظ فشتم كندة ، لا يلبث أن يرعوى ويعود إلى رشده ، فيعلم أن كندة ومذحج وإن بعدت ، كلتاهما من اليمن . فما كان ليحسن مثل هذا الاعتذار لو لم يكن يمنياً :

أهاشم خذ منى رضاك وإن أبى رضاك على نفسى فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدى وعرضى وما مزقت غير أديمى

وهى المرة الواحدة التى يذكر فيها والده . ولعله لو أسعفته القافية لترحم عليه ففى البيت رقة تستدعى ذلك . ثم يقول فى هاشم وأهل اليمن :

إذا امتازت الأحساب يوماً بأهلها أناخ إلى عادية وصميم
إلى كل معصوب به التاج مقول إليه أتاوى عامر وتميم

على أن المهم فى حديث الأسرة والأرومة أثرها فى تكوين الشاعر . ولا ريب فى أن شاعرنا قد ورث عن أبويه صفات

وخصائص خلقية . ولكن من الإسراف — فى غير طائل — البحث فى شعره ومذهبه فى الحياة ، ورد شىء أو أشياء فيهما إلى خصائص العرق الفارسى أو العربى . ذلك لأن النواسى قد طغى عليه مؤثر البيئة . فهو شاعر أسرف فى المجون فى بيئة أسرفت فيه ، وتهتك جلّ شعرائها . ومن الصعب القول كما قال القدامى : إن أبا نواس هان عليه العرب وتغنى بعيش الترف وعيش الفرس ، لمكان خؤولته منهم . فلهذا أسباب ليست من هذه ، سيراها القارىء مبسوطة فى بحث العصبية .

وإذا كان النواسى فقد والده صغيراً ، فلعله لم ينعم بصحبة أمه طويلا . فهم يذكرون أنها تزوجت رجلا اسمه « العباس » ، ومن العبث البحث عن هـذا العباس من هو ، ومتى تزوج بجلبان . فلقد هان على التاريخ ، فلم يذكره إلا حينما ذكر أنه تزوج بأم الشاعر . ولولا هذا الزواج لما ذكر . ويذكر ابن منظور أن له أختا تزوجت بشخص اسمه « خرج القصار » . ويسمون له إخوة . والراجح أنه لم يكن له غير « أبى معاذ الذى كان عطلا من كل شىء ، إلا أنه أخو النواسى » . وليس يضير أبا معاذ أن يسقطه النواسى من الحساب إذ يوجه الخطاب إلى جنان :

لا تفجعى أمى بواحدها لن تخلق مثلى على أمى

فهو موجود على الرغم من هذا .

وحديث الأخت والأخ قريب من أن يكون صدقاً . فالنواسى فى بغداد يذكر أن له ذوى رحم وأنه مكلف إيثارهم و برهم ، وأنه مضطر إلى هذا الإيثار و البر ولو كلفه أن ينتعل قدميه بدل ركوب الدابة الفارهة وأن يزهد فى الثوب الثمين والملبس النفيس :

تقول لى الركبان مالك راجلا وكنت ركوباً عصر نحن رجال

فقلت عدانى عن ركوب وملبس ذوو رحم آثرتهم وعيال

فمن هم هؤلاء ذوو الرحم أأسرة أبى معاذ ؟ ربما ، وربما كان معها أسرة شقيقته . وفى شعره يذكر الأعمام والأخوال :

لو أن هذا كان فى بلدى أرضيت أعمامى وأخوالى

وذوو الرحم على أية صورة كانت قرابتهم للشاعر ، منهم جزء من البيت والجزء الآخر هم العيال ، فمن أين جاء بهم الشاعر ؟

أحب أن أزعم هنا أن النواسى تزوج — على شكل ما — ورزق أطفالاً

وأنه كان يسكن إلى أسرة فى بغداد — الأسرة التى كونها هو — وهو زعم لاسبيل إلى تحقيقه من ناحية التاريخ . فالذين كتبوا عنه ينفون و يثبتون ، و يمرون بهذا الجانب من ناحيته

سراعاً موقنين أن هذه الحياة العابثة المسرفة فى المجون والخلاعة ، لا تحتمل عيش الأسرة . وأوفى ما كتبه عن هذه الناحية ابن منظور قوله إن أبا نواس تزوج وطلق فى ليلته . ثم يضعف الرواية إذ يذكر أن هناك من يزعم أنه لم يتزوج مطلقا ، وما السبيل إلى تأييد هذا الزعم إلا النظر فى أشعاره . فهو يذكر فى ديوانه أن له ابنتين إحداهما اسمها « برّة » والثانية « لباب » ويقول عن برّة « إنها الابنة التى لم ير أبوها غيرها » :

ألا إن بنتى بنت من لم ير ابنة	ولا ابناً سواها قد تبر وتؤنس
فيا « بر » برينى الحياة وإن أمت	فلا تدخرينى دمعة حين أرمس
فذاك ابن سوء لا يرى لعشيرة	صلاحاً ولا يعطى اللواء فيرأس
تحب أباها حب من لا أبا له	وتذكره فى الصدر وحشى فتأنس

ويذكر « لباب » وهو فى مصر :

لباب تكبرى فوق الحوارى	فان أباك أعتبه الزمان
متى أجمع أبا نصر ومصرا	فما للدهر بينكما مكان

ولا سبيل إلى الزعم بأن هذه الأبيات قد تكون مدخولة على أشعاره . فالذى أدخل على شعره ليس من هذا وإنما هو من أشعار الخمر والمجون . ولعل « لباب » هى التى يذكرها فى قصيدته التى يمدح بها الخصيب فى مصر :

أبشرى يا ابنتى بعيرة مصر	وتمنى وأسرفى فى الأمانى

وما أظن مجلس الخصيب يحتمل أو يفرض على النواسى أن يكذب ويختلق ، ويدعى أن له ابنة .

وقد كان يكنى بأبى على وكان يناديه بذلك الخليع الشاعر والخصيب ، ولقد حمل هذه الكنية حتى موته .

فهل كان له ولد ذكر ؟ لقد رثى فى بيتين ولداً له :

لعمرك ما أبقى لنا الموت باقياً ... نقر به عيناً غداة نؤوب
كأنى وترت الموت بابن أفاده ... على حين حانت كبرة ومشيب

ويقول فى قصيدة ثانية :

تقول التى عن بيتها خف محملى ... عزيز علينا أن نراك تسير
ذرينى أكثر حاسديك بزورة ... الى بلد فيه الخصيب أمير

فمن هذه التى خف عن بيتها مركبه ، وهو يرق لها فيطلب إليها أن تدعه وشأنه ، ليكثر حاسديها ؟ لعلها «لباب» أو «برة» ابنتاه ، ولعلها جارية من هؤلاء الجوارى اللائى كثيراً ما كن يهدين إليه .

ويقول وهو منصرف من السجن ، بعد أن شفع له الفضل ابن الربيع لدى الأمين :

إنى أتيتكم من القبر ... والناس مجتمعون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت ... عينى إلى ولد ولا وفر

ويكرر لفظة الولد كرة أخرى :

لو أن دون الموت واقية لفديتها بالمال والولد

وإذا كان من الممكن أن تنصرف كلمة الولد فى البيت الأخير إلى غير مدلولها الحقيقى مما يحتمله الشعر ، فلا أظن أنه من الممكن أن تنصرف إلى غير معناها فى البيت الأول ، ويبقى بعد ذلك المعنى سليما . فالسجين الذى يقول لمنقذه لولاك لم أستطع أن أنظر إلى ولدى لا يستطيع أن يقول ذلك إذا لم يكن له ولد .

وإذا أردنا أن نؤرخ عيال النواسى قلنا إنه ذكر إحدى ابنتيه فى مصر وذلك بعد عام ١٨٧ للهجرة . ثم ذكرهما بعد خروجه من السجن . فإذا كان بعد خروجه من سجن الرشيد ، ففى عام ١٩٣ . وإن يكن من سجن الأمين ، ففى عام ١٩٥ هـ . ثم رثى ابناً له ، ويحتمل أن تكون ابنة ، فاللفظ هنا لا يقصد به التحقيق ، وإنما هو لبيان مقدار الإعزاز والتفجع ، بعد أن حانت منه كبرة ومشيب . ولعل ذلك بعد السنين التى ذكرناها .

وحكى « الصولى »[١] عن محمد بن نافع — فى معرض حكاية عن الشاعر بعد موته ، أن الله غفر له بأبيات قالها ، فأتى أهله

---

(١) وفيات الأعيان — ترجمة الشاعر

وسألهم عن غرفة الشاعر فلما رأوه أجهشوا بالبكاء ، ودلّوه على الغرفة ؛ ويهمنا من الحكاية كلمة الأهل ؛ والنواسى يردد كلمة أسرتى « وتفديك أسرتى » ، وهى أبيات لا نستطيع أن نوردها سنداً لما نذهب إليه ، إذ كانت مما يجوز أن يقوله الشاعر ثم لا يقصد مدلوله . ولكنّ هذه الكلمة إذا جاءت بعد الذى أوردناه كانت خليقة أن تحمل على معناها الحقيق ، وهذا ما نرجحه فهل سكن الشاعر إلى زوجة ؟؟ أكثر الظن أن النواسى لم يتزوج كما تزوج الناس ، وإنما كان يسكن إلى هؤلاء الجوارى اللاتى يهدين اليه ، أو يشتريهن إذا قدر ، وهو زعم « مقبول » بالنسبة الى ذلك العصر ، عصر الجوارى والإماء .

وتزيّد الناس عليه فى هذا الباب ، ونحلوه أشعاراً لا يستقيم أمرها إلاّ اذا لم يتزوج . فلم يزوجوه ، وضنوا عليه ببنت أو ولد . ولا سبيل لباحث إلاّ أن يحسب حساب هذه الزيادة على هذا الشاعر فى باب المجون ، وكل ما يتصل به .

علمٌ ولهوٌ

من حسن حظ النواسى وحظ العربية أن كانت البصرة فى ذلك الحين مركزاً من مراكز الثقافة والعلم، لا ينافسها فى موضعها منهما إلا حاضرة الملك «بغداد». ففى البصرة من يحدث فيجيد الحديث، ومن يروى عن العرب فيكون الحجة فى الرواية وصحة الاطلاع كالأصمعى وأبى عبيدة الذى استطاع أن يقول — كما يروى صاحب الفهرست — ما التقت فرسان فى جاهلية أو إسلام إلا عرفت الفارسين والفرسين. وفيها النحاة المجيدون، والقراء الأعلام، ومن انقطع إلى غريب اللغة كأبى زيد الأنصارى. وفيها شباب فى سن فتانا النواسى، يغدون على هؤلاء المبرزين يأخذون عنهم ويتعلمون منهم؛ وقد بدأ بعض هؤلاء الشباب يشدون فى الأدب ويقرضون شعراً، ولا نعرف بأى إغراء — غير إغراء العبقرية والإلهام — هفت نفس النواسى إلى أن يغدو مع هؤلاء الشباب ليأخذ مما يأخذون. فقد سمع الحديث عن جملة من رجاله كحماد بن زيد، ويحيى بن سعد القطان وغيرهما. ونظر فى نحو سيبويه، وتتلمذ على أبى عبيدة، وخلف

الأحمر . واختلف إلى أبى زيد النحوى قبل أن يرتحل هذا الحجة إلى بغداد فى أيام المهدى ، وكان أشد هؤلاء الجهابذة تأثيراً فى نفسه أبو عبيدة وخلف الأحمر . فقد تعدى الأمر بينهما و بينه إلى شىء يشبه الصداقة . فهو يكبرهما وهما يكبرانه . يقول عن خلف : إنه جماع العلم ، وعن أبى عبيدة معمر بن المثنى إنه أديم طوى على علم ؛ و يقول عنه أبو عبيدة : ذهبت اليمن بجد الشعر وهزله ، امرؤ القيس بجده ، والنواسى بهزله . وذكروا أن خلفاً الأحمر لم يأذن له بنظم الشعر حتى أحفظه جملة صالحة من أشعار العرب ، ثم طالبه بنسيانها . وهى طريقة بارعة فى الدرس اهتدى إليها هذا الشيخ المنقطع له . فقد أراد أن يتمثل تلميذه الشعر الذى حفظه ليرد إليه معناه من وراء العقل الواعى، بعد أن يعمل فى هذا المعنى عمله الخاص . فإذا جاءت هذه المعانى أو شبيهاتها فى أشعار النواسى فهى له بعد أن جرت فى لحمه ودمه . وقد عرف لأستاذيه فضلهما فرثاهما كليهما .

ولم يكتف النواسى بما وعى من علم يتصل بما هو مقبل عليه من قول الشعر وتعاطيه ، بل راح يطلب كل علم ، و يتذوق كل معرفة . يروى ابن خلكان فى تاريخه أن اسماعيل بن نوبخت قال:

« ما رأيت قط أوسع علماً من أبى نواس ، ولا أحفظ منه مع قلة كتبه . ولقد فتشنا منزله فما وجدنا إلا قمطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو لا غير » .

ويقول ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : « وكان النواسى متفنناً فى العلم قد ضرب فى كل نوع منه بنصيب ، ونظر بعد ذلك فى علم النجوم » . وأورد هذه الأبيات وهى لأبى نواس فى هجاء مغنٍ اسمه زهير :

قل لزهير إذا حدا وشدا　　أقلل وأكثر فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتى　　كذلك الثلج بارد حار

ثم عقب عليها بقوله : « إن هذا الشعر يدل على نظر فى علم الطبائع » . ومعاصرو النواسى ومن تلاهم لا يمترون فى أنه قد أخذ من علوم عصره بحظ ، ويدل شعره على أنه كان له مثل هذه المشاركة ولا سيما فى علم النجوم .

غير أن البصرة لم تكن كلها خالصة لحديث العلم والمعرفة ، فقد كان فيها أماكن للهو ، ومواطن للمجون ، وفيها جوار مولدات وجليبات ، وفيها غير الجوارى ، الخمر وما هو شر من

الخمر . . . . وقد خلت حياة هذا الفتى من كل ما من شأنه أن يحدّ من نزوات الصبا الطائشة . فلا أب يحجزه بأوامره ونواهيه . وأ كبر الظن أن أمه أصبحت « للعباس » . وإذا خلت حياة الفتى — فى المدينة — من رقابة الأسرة فليست الغرابة أن تصير لهواً ، وإنما الغرابة أن تصير إلى لهو معه كلف بالنحو وغريب اللغة ، ورواية الشعر ، ونظر فى علم النجوم. وتساعد المدينة حالة العصر فهو عصر الترف والمجون فيخرج الفتى فى لهوه عن حدود الاعتدال .

وقد يخلو عيش الفتى من رقابة الأسرة ولا يعدم مغريات المدينة والعصر . ولكنه لا يصير إلى عيش النواسى ولهوه ، فلا بد من علة تجىء مع هذه أو قبلها — تلك علة الأعصاب ، وحال المزاج . فأعصاب النواسى ومزاجه لا يساعدانه إلا على الإغراق فى الشئ والإفراط فيه ، هى أعصاب شاعر مستوفزة مستعدة لإجابة أول داع .

مع وَالِبـة

ليس فى سيرة النواسى ما هو أوضح وأغمض فى الوقت نفسه من حكايته مع والبة . فإن شئت أخذتها على عجل وعلى علاتها كما رواها أبو الفرج الأصفهانى ، وهو أقدم رواتها ، وكما أخذها الذين تلوه بتحريف قليل لا يمس جوهرها . رآه فاستملحه وسار به إلى الكوفة . ومن ثم نشأت بينهما علاقة مريبة .

ويضطرب مكان تلاقى النواسى بوالبة بين الأهواز والبصرة والكوفة . ويضطرب زمان هذه اللُّقيا ، بين سن الصبا ، وبين سن هى فوق الصبا . كان فى السن الأولى أجيراً فى الأهواز ، أو فى أسـواق البصرة ، ولكنه لم يلتق بوالبة إلا حينما استقدم أبو بجير الأسدى هذا الصبي مع من استقدمهم إلى الأهواز ، ليصنعوا له عطراً . وفى السن التى هى فوق سن الصبا لم يتلاق بوالبة مصادفة واتفاقاً ، وإنما هو يسعى إليه فى الكوفة ليصحبه وليخرج إلى بادية بنى أسد ليقوِّم أدبه ، وليطلع على لهجات العرب .

على أن مسألة الذهاب إلى بادية بنى أسد تكاد تعين تاريخ

هذه اللُّقيا . فهو بعد أن أقام بها سنة — كما ترجح الرواية — ارتحل ووالبة إلى بغداد . ولا يضعف الرواية هنا أن ورد بها بعض المرات أن النواسى جاء البصرة منصرفه من الكوفة . إذ كان لا بُدَّ له من أن يعرج عليها لأنه نوى أن يرحل منها إلى غير رجعة . وإذا صحَّ هذا ، وليس فى عرض الرواية على أشكال مختلفة ما يمنع من قبوله ، فيكون النواسى حينما التقى بوالبة أو ارتحل لصحبته قد شارف العقد الثالث من عمره ؛ لأنه قدم دار السلام وهو ابن ثلاثين ، أو كان قريباً من هذه السن ، كما يفهم من سياق حكاية حياته ، وكما يرجح من كتب عنه . وإذا ما ثبت ذلك فقد انتفت العلاقة المريبة بينهما فما سن الثلاثين بالسن التى تساعد عليها .

إن ذهاب النواسى إلى بادية بنى أسد أمرٌ يكاد يكون غير مشكوكٍ فيه . وقد اعتاد شباب العرب الذين يرغبون فى التمكن من الغريب والقول الفصيح ، أن يلموا بهذه البادية ، فى سنٍ مبكرة . ولكن النواسى لم يرسله أبوه إليها ولم يكن فى وفرةٍ من الغنى ليذهب إليها متى أراد . فالأقرب إلى المنطق أنه لم يذهب إليها إلا بعد أن عزم على الخروج إلى بغداد ، ولقاء رجال البيان

فيها . فأراد التحوّطَ للأمر ، والتمكّن من اللغة لينفى عن نفسه كل شكٍ فى قدرتها على الوقوف على صعيد واحد مع أعلام الشعر فى مدينة الرشيد .

وذهاب فتىً فقير من البصرة ، لا أهل له يستطيع الاعتماد عليهم فى تهيئة أمر سفره، يحتاج إلى من يأخذ بيده ، و يعينه على هذه الرحلة التى قد تمتدُّ الى سنة . فليس ما يمنع أن يكون قد ذُكر له أبو أسامة والبة وهو شاعرٌ وظريفٌ ومن رجال بنى أسد . فسار إليه يسأله العون ، وكان عند حسن ظنه فيه . فبعث به الى البادية مع وفدٍ من بنى أسد . ولما عاد سار و إياه الى بغداد ، فلم يقو والبة على الصمود لرجال الشعر فيها ، ولم يكن صاحبه من الوفاء أو من الشهرة والقوة فى الشعر بحيث يستطيع نصرته ، فلم يصنع شيئاً وعاد والبة الى الكوفة ولم يُعد .

هذا احتمال من جملة احتمالات تقال فى علاقته بوالبة . وهو و إن لم يك بأقواها فليس بأضعفها ، يضاف إليه أن والبة كان شاعرا معروفا فى الكوفة ، لا مثيل له فى البصرة . لأن الذين نبغوا فى هذه المدينة بعد كانوا لدات النواسى فى السن. والنواسى

لا يثق بخلف الأحمر وأبى عُبيدة فى نقد الكلام وتمييزه تمييزاً صادقاً فنياً كما يقول .

يزيد هذا الاحتمال قوة أننا نجد النواسى ينظم الشعر فى الكوفة ، ونحن نعلم أن النواسى لم يستعجل النظم . فقد رُوى أنه قال : « إننى لم أنظم إلا بعد أن رويت لستين امرأة » . وإن لم يكن هذا القول صادقاً بتمامه ، فالذى نستخلصه منه صادق بتمامه ، وهو أن النواسى لم يستعجل النظم وأنه لم يذع شعره إلا بعد أن شبَّ عن الطوق وتمكن من اللغة وأكثر من رواية الأشعار . وقد ذكروا أنه جارى والبة فى الارتجال عند ما قصدا الحيرة . وهذه قصيدة بعث بها من الكوفة إلى رجل اسمه « العباس » فى البصرة :

قولا لعباس لكى يدرى   لغلام عك قـوة الصر
هذا وتذكرنى لكل أخ   يغشاك ذكر للادح الماٍرى
لتزينى والشين ذكرك لى   فاد كرهنانك والهعزذكرى
واقطع بسيف صارم ذكر   أسباب كتب بيننا تجرى
ما ذاك إلا أنى رجـل   لا أستخف صداقة البصرى
ذهبت بنا كوفان مذهبها   وعدمت عن ظرفائها صبرى

وهذه القصيدة تدلُّ على تمكنٍ من القريض ، وتصرُّف به

وهى بعد — أى القصيدة — تدل على شىء آخر وهو تألمه من البصريين لأنهم ينحتون فى أثلته ، ويذكرون هناته « فاذكر هناتك واله عن ذكرى » وهو خطاب واحد ولكنه عمم البصريين بقوله إنه لا يستخف صداقتهم .

ويعود النواسى مرة أخرى إلى ذكر البصريين فى قصيدة أخرى قالها وهو فى بغداد . وهى قصيدة تنضح بالألم من أصدقائه فى البصرة :

أيا من كنت فى البصر	ة أصفى لهم الودا
ومن كانوا موالى	ومن كنت لهم عبدا
ومن قد كنت أرعاه	وإن مل وإن صدا
شربنا ماء بغداد	فأنسانا كم جدا
فلا ترعوا لنا عهدا	فما نرعى لكم عهدا
ولا تشكوا لنا فقدا	فما نشكو لكم فقدا
كلانا واجد فى النا	س ممن مله ندا
قطعنا حبلكم عمدا	كما أعرضتمو عمدا

وقد تكون هنالك أسباب ومسببات قوية حملت الشاعر على قطع عهود رفاق الصبا عامداً . ولكن ألا يقارب الصواب من يفترض أن من هذه الأسباب والمسببات تقول أهل البصرة ، ورفاق البصرة ، وقدحهم فى عرضه ؟ لقد شارى النواسى فى بغداد

طائفة من الشعراء والناس . ولا مشاحة أنهم كانوا يتلقفون حديث أصله ونسبه وأنباء طفولته وشبابه من أهل البصرة المقيمين بها أو ببغـداد . وكان من هذه الأحاديث والأنباء اجتماع الشاعر بوالبة . ويكفى أن يروى حديث هذا الاجتماع حتى يصدق كل ما يقال فيه ، فالنواسى متهتك فى حياته، جميل الصورة فى صباه . وذكر له صاحب زهر الآداب فى الجزء الأول من كتابه صورة رائعة هى أو فى صورة ذكرت له فى كتب الأدب فقد وصف عبد الله بن الجماز أبا نواس فقال : « كان أظرفهم منطقاً ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياء . وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النغمة والإشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف . وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر . وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للأشعار راوية للأخبار » . ولقد كان والبة متهماً بدينه ، مغرقاً فى فحشه وفجوره . وقد رسم له أبو العتاهية فى أهاجيه صورة لخلقه ليست دون صورة خلقه . فهو خفيف الحاذ ، أقيشر الخدين،

أشقر فى وجهه حمرة كحمرة الرئة . وقد ذكر أبو الفرج أن المهدى سأل عمارة بن حمزة (والى الأهواز عام ١٥٨ هـ) عن أرق الناس شعراً . فقال هو والبة . ثم سأل عمارة المهدى لم لا ينادمه ؟؟ فذكر له بيتين قالهما والبة نخجل من روايتهما ، مآلهما أنه يدبُّ إلى كل جليس من جلسائه . وأردف المهدى قائلاً : « أو تريد أن نكون من جلاسه على هذا الشرط ؟ » فأية تهمة تلصق بالنواسى إذا ما ذكر خبر مجالسته وصحبته له ، فلم يحجم أعداء أذكياء خبثاء كأعداء النواسى ، عن أن يستغلوها إلى أبعد حدود الشناعة ؟ .

أتمّ النواسى دراسته فى البصرة ، وأقام عاماً بالبادية . ولما وثق من نفسه ومن أدبه ، عقد النية على الذهاب إلى بغداد والإقامة بها ، ليجرِّب حظه فى دار الحظوظ . وما كان له أن يعدو هذا الحلم الباسم ، والأمنية المشرقة ، أن ينزح إلى بغداد حيث المال والجمال ، والحياة المونقة السعيدة .

فى دنيا الرشيد والأمين

نزح « أبو نواس » إلى بغداد ، ولم يكن له معدًى عن النزوح إليها ، فقد كانت الحاضرة التى ينفق فيها الشعر وتجزل لأصحابه فيها الهبات . ولم تعين الرواية تاريخ هذا النزوح . وكل ما تذكره أنه كان فى خلافة الرشيد وخلافة الرشيد فترة طويلة تمتد من عام سبعين ومائة إلى عام ثلاثة وتسعين ومائة . ففى أية سنة كان هذا النزوح ؟ ؟ وهل قدر على مدح الخليفة إثر مقدمه ؟ و بأى البيوتات كان أول اتصاله ؟ ؟ هذه أسئلة لا بُدّ من الجواب عنها ، ولكن الجواب لا يستند إلى كتب التاريخ ولا إلى كتب الأدب ، وإنما سبيله الظنُّ والترجيح واستنطاق الحوادث وعسى أن نقدر .

قال شاعرنا الشعر — فى البصرة — واشتهر بين أهلها به و بمجونه . ومن الممكن أن يكون قد وصل شىء من هذا الشعر إلى بغداد — إلى ندوات الأدب الخاصة — ولكن شهرته لم تستفض إلا بعد أن أقام ببغداد ، واشتهرت طريقته فى الشعر ، ومذهبه فى الحياة . ولهذا فلا نُدحة عن الترجيح بأنه لم يكن

يطمع فى الوصول إلى خليفة فى جلال الرشيد — يمدحه وينصرف — إلا بعد أن يجيزه عليه ذو جاهٍ قريب من الخليفة .

وإذا كان مدح الخليفة غير متيسر له ، فلينزل بآماله درجة أو درجات . ولعل فى تقربه من هؤلاء الأكابر والعظماء القريبين من الخليفة ، والذين يهبون الهبات التى لا تقلُّ عن هباته ، ما يعوضه عن هذه الأمنية التى يهفو إليها قلب كل شاعر يردُ بغداد — فى ذلك الحين — وهى مدح الرشيد وإنشاده والأخذ من نائله الغمر . فهل عدا بآماله البرامكة ، وهم ألمع رجال ذلك العصر ، وأسخاهم يداً ، وأكثرهم تقديراً للشعر ، وتفطناً لمواطن الجمال فيه ؟ لا نظن ! فما كان لشاعر أن يعدو عنهم برضاه . فقد مدحهم النواسى وأطال . ولا شك أنه ضاع كثير من هذا المديح . فهو يذكر غير مرة فى معرض هجائه جعفراً أنه قد مدحه كثيراً ، ثم لا يذكر رواة شعره وجامعو ديوانه شيئاً من ذلك ، وأخذ من عطاء البرامكة ولكنه كان عطاء مصرّداً لم ينقع غلته . فانقلب عليهم يهجوهم الهجاء المقذع ، ويناصبهم العداء المؤلم .

وتذكر كتب الأدب حادثتين وقعتا له مع البرامكة ، إن لم يكن فيهما كل السبب لهذه الجفوة بينه وبين القوم ، فقد زادتا

فى توسيعها ، وتمكين الشنآن فى القلوب . أولاهما أن يحيي ابن خالد البرمكى — ومن الروايات ما تذكر أنه الفضل — وكل إلى أبان اللاحقى تصنيف جوائز الشعراء الذين يمدحونه فصنَّف جائزة لأبى نواس لم يرضها . هكذا ذكر صاحب الأغانى ، وزاد ابن عبد ربه فى الجزء الثالث من العقد أن أباناً بعث للنواسى بدرهم زائف بعد أن أعطاه الفضل أموالاً ليفرقها على الشعراء كلٌّ على قدره . والثانية تشبه هذه ولعلها هى بعد تحريفها قليلاً رواها الجهشيارى ، وهى « أن الفضل بن يحيي فوّض إلى أحمد بن سيار تقدير جوائز الشعراء بعد أن أذن لهم الرشيد بمدحه ، عند منصرفه من ولاية خراسان ، فمشى إلى أحمد بن سيار هذا جماعة من الشعراء والأدباء منهم أبان ، وأشجع السلمى ، وداود ابن رزين ، وغيرهم . وتحملوا عليه بغلام كان يحبه ليضع من شعر النواسى ولا يلحقه بنظرائه منهم . فلما عرض النواسى شعره عليه رمى به ، وقال هذا لا يستحق قائله درهمين . فهجاه النواسى واتصل الخبر بالفضل فأرضى النواسى وصرف الجرجانى » .

فهل كانت هاتان الحادثتان سبباً لتباعده عن البرامكة . أو أن تباعده عنهم هو الذى حمل عليهما ؟ ؟ لعلّ الصواب

هو فى مزج الحالتين . فتباعده عن البرامكة أغرى به شعراءهم ، وتعرمُ شعرائهم عليه باعد بينه و بينهم . و يلوح لى أن النواسى رشّح نفسه لأن يكون شاعر البرامكة . وليس لدىّ من دليل أقدمه غير استكتناه الحالة النفسية التى يلمحها القارئ فى هجائه أباناً شاعرهم .

لزم أبان باب الفضل مدة طويلة وقدّم العريضة التى يطلب بها « وظيفة شاعر الأمير الشاغرة » وكانت العريضة قصيدة منها.

أنا من بغية الأمير وكنز	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب	ناصح راجح على النصاح

فعارضه النواسى هاجياً وكان مما قال :

أنت أولى بقلة الحظ مى	ياسمى بالبلبل الصداح
قد رأوا منه حين غى لديهم	أخرس الصوت غير ذى إفصاح
فيك ما يحمل الملوك على الخر	ق وبزرى بالسيد الجحجاح

فما معنى قوله أنت أولى بقلة الحظ منى ؟ ؟ أليس من معناه أن لو أنصف الزمن لكنت أنا لا أنت عند هؤلاء القوم الذين لا تجيد الغناء لديهم .

ولم يكتفِ النواسى بهجاء أبان بل عمّ بالهجاء كل شعرائهم فقد هجا الخاسر ، والرقاشى ، وأشجع السلمى . ولعله لم يعفُ

عن ابن مناذر وإن لم يُروَ هجاؤه فيه ، فقد كان ابن مناذر سيء الرأى فيه لا يكاد يطيق سماع شعره .

ويقول ابن رشيق فى كتابه العمدة الجزء الأول : « ومن قبيح ما وقع لأبى نواس الذى أساء به أدبه وخالف فيه مذهبه أن بعض بنى برمك بنى داراً استفرغ فيها جهده وانتقل إليها ، فصنع النواسى فى ذلك أو قريباً منه قصيدة يمدحه فيها ويقول فى مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك وإنى لم أخنك ودادى

وختمها أو كاد يختمها بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغاد

فتطير منها البرمكى (وهو الفضل — لورود اسمه فى هذه القصيدة) ، واشمأز حتى كلح ، وظهرت الوجمة عليه . ثم قال له : «نعيت إلينا أنفسنا يا أبا نواس» . فما كانت إلا مُديدة حتى أوقع بهم الرشيد وصحت الطيرة وزعم قومٌ أن النواسى قصد التشاؤم لشيء كان فى نفسه من جعفر » .

يئس من البرامكة ومن أن يكون شاعرهم ، فانصرف إلى بيتٍ ينافس البرامكة ، وينفس عليهم دولتهم ، ويراها فارسية وهو

بيت آل الربيع — وعميده الفضل بن الربيع الذى يتزعم الحزب العربى . و إذا كان من المتعذر تعيين السنة التى انصرف إليه بها فلا شك أنها تقع فى أيام زهو الدولة البرمكية . يقول النواسى :

قولا لهرون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحة الفضل وإشفاقه اخلى لهُ وجهك من حاسد
بصادق الطاعة ديانها وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد

وهى أبيات يُرجح أنها قيلت لمّا تولى الفضل بن الربيع الحجبة . وقد وقع ذلك فى عام ١٧٩ هـ بعد أن عزل الرشيدُ محمدَ بنَ خالد البرمكى . ولا أظن أنها قيلت فى غير هذا الظرف . فالفضل تولى الحجبة فى هذا العام وتولى الوزارة فى عام ١٨٣ هـ بعد أن نُكب البرامكة ، و بعد أن أُخلى له وجه الحاسد . والتهنئة بالوزارة لا تكون بمثل هذه الأبيات ، والسرور البادى عليها يقسر الباحث على ردّ صلة الشاعر بهم إلى ما قبل هذا التاريخ ، بل هو قبل هذا التاريخ باعتراف الشاعر نفسه

ولا تفسدوا بى ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

كتب إليهم بهذه القصيدة التى منها هذا البيت وهو بسجن الأمير عام ١٩٥ للهجرة . فتكون معرفته إياهم وصلته بهم فى عام

١٧٥ هـ . ولعلّ هذا هو تاريخ قدومه بغداد . مَدَح البرامكة فلما لم ينفق عندهم كما يشتهى ، تقرّب من هذا البيت ، وهو بيتُ جاهٍ وغنى ومكانة مرموقة عند الناس . ولعميده بعض الحظوة لدى الخليفة . نقول هذا ولا نرجحه كل الترجيح ، وإنما هو رأى نستمسك به حتى يتبين خلافه

يقول ابن الطقطقى فى كتابه الفخرى: « إن الفضل بن الربيع لما صارت إليه الوزارة تهوّس بالأدب وجمع إليه أهل العلم فحصّل منه ما أراد فى مدةٍ يسيرة. وكان أبو نواس من شعرائه المنقطِعين إليه . فهو شاعر آل الربيع ومادحهم قبل الوزارة ، والمنقطع إليهم بعدها . وجلة قصائده المُبرزة فى المديح هى فيهم .

آل الربيـع فضلتم فضل الخميس على العشير
من قاس غيركم بكم قاس الثماد إلى البحور
أين النجـوم التـاليا ت من الأهلة والبـدور
أين القليـل بنو القليـــــل من الكثير بنى الكثير
أدركتم جزر الخـلا فة وهى شاسعة المصير
لولا مقامكم بهـا هوت الرواسى من ثبير

وفى تقرب النواسى من بيت الربيع بل فى عدم ازوراره عنه ما يزيد الجفوة ويباعد كثيراً بينـه وبين البرامكة . فقد

كان العداء مستحكما أليما بين هذين البيتين . وذكر صاحب كتاب الوزراء والكتاب « وعن عبدان بن سليمان أن من أسباب زوال دولة البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع »

ولا بأس هنا من كلمة فى بيت الربيع الذى أصفاه النواسى وده ، وانقطع إلى مدحه . فهو بيت ليس بالعريق ، يبدأ مجده من الربيع أبي الفضل الذى استوزره المنصور لما رأى فيه من النبل والجلال . وبقى وزيره طوال أيام المنصور ، ثم تولى حجاب المهدى ، ودس له الهادى السم فمات . أما ولده الفضل فقد تولى حجاب المنصور والهادى . ويذكرون أنه تولى حجاب المهدى ، فيكون تناوب العمل فى هذه الوظيفة ووالده . وفى خلافة الرشيد تولى ديوان النفقات فى عام ١٧٢ هـ ، ثم الحجبة ، ثم الوزارة . هذا هو تاريخ الأسرة « من وجهة رسمية » ، ومنزلتها الرفيعة عند الخلفاء . وقد استفادت من ذلك مالا كثيراً . فقد ذكروا أن الربيع تناول من يعقوب بن داود مائة ألف دينار ليعمل له عند الخليفة فيتخذه وزيراً ؛ وقد تم ذلك فى خلافة المهدى ، هذه صفقة رواها التاريخ ومثلها لم يرو كثير ، أما تاريخ الأسرة فيما عدا الحجبة والوزارة فتاريخ الدهاء والفطنة والبصر بمواقع الأهواء ،

ومواطن رضى الساسة والأمراء ، وانطواء على الضغن ، وإجادة في الدس والوقيعة .

استطاع الربيع أن يوغر صدر المهدى على وزيره الداهية معاوية بن يسار . وما زال يلح عليه ويراوحه ويغاديه بالنميمة حتى طلب المهدى إلى وزيره أن يقتل ابنه بيده تقرباً إلى الله بعد أن استطاع الربيع إقناعه بزندقته . لم يقتل الوالد ولده ، ولكن الخليفة أمر غيره بقتله . ولم يكتف الربيع بهذا فما زال بالخليفة حتى أمر وزيره أن يقيم ببيته ولا يأتيه .

قال صاحب الفخرى : « دخل معاوية يوما على المهدى وهو وزيره يعرض عليه كتباً وردت من بعض الأطراف . فطلب من المهدى إخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع . فلم يعرض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، وطلب أن يخرج الربيع . فقال له المهدى : « ياربيع اخرج » ، فتنحى قليلا . فقال المهدى : « ألم آمرك بالخروج؟ » قال: «يا أمير كيف أخرج وأنت وحدك ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ » فثبت هذا المعنى في نفس المهدى ، إلا أنه قال :

« يا ربيع إنى أثق بأبى عبيد الله . أعرض يامعاوية ما تريد فليس دون الربيع سرّ » وأدل من هذا على خلق الربيع و بصره بمداراة الرجال ، ومسايرة الزمن ، ثم انطواء نفسه على الضغينة والحقد أن نعلم أسباب هذه الخصومة . فقد روى صاحب الفخرى — أيضاً — أنه لما توفى المنصور وأخذ الربيع البيعة للمهدى ، قدم من الحجاز وحضر من ساعة وصوله إلى باب الوزير المذكور فقال له ابنه الفضل : أقبل منزل الخليفة ومنزلنا ؟؟ فقال : « نعم يا بنى هو صاحب الرجل ، والغالب على أمره ؟ فلما وصل وقف ساعة حتى خرج الحاجب . فلما دخل لم يقم له ثم سأله عن سيره وحاله ، فأخبره ، وشرع الربيع يحدثه بما جرى فى مكة حتى موت المنصور ، واجتهاده فى أخذ البيعة للمهدى . فسكّته وقال: « قد بلغنى الخبر فلا حاجة إلى إعادته » فاغتاظ الربيع ولكنه آثر السكوت ، ثم قام وخرج وقال لابنه : « علىّ كذا وكذا إن لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه و إزالة نعمته » وما زال حتى فعل .

وكأنما انحدرت هذه الفطنة والدهاء والميل إلى الوقيعة والمعرفة بمواقع الدسيسة إلى ابنه الفضل فورثها فى جملة ما ورث عن أبيه . فمهما اختلفت الأسباب وتعددت الأقوال فى العوامل التى دعت

إلى نكبة البرامكة من إدلال على الخليفة ، إلى العمل بغير إذنه وما لا يوافق هواه ، إلى حكاية العباسة إلى حسد الخليفة ، إلى غير هذه ، فلا مراء فى أن للفضل يداً فى هذه النكبة . فقد كانت له عيون عليهم وهو الذى أنمى إلى الرشيد خبر إطلاق جعفر البرمكى يحيى بن عبد الله بن الحسن الثائر الطالبى . وقد قيل إن هذا هو السبب الذى قتل من أجله جعفر ؟ وكان بينه و بينهم ملاحاة فى مجلس الرشيد

تلك هى الأسرة التى كاد ينقطع إليها النواسى فى بغداد وقد أكثر من مدحها ، والتى لا ريب فى أنه استفاد من معروفها وخيرها الشىء الكثير . . . . . . فهل قدر الفضل على إيصاله إلى الرشيد ؟ لا مُشاحة فى أنه لم تكن له مثل هذه القدرة فى زمن البرامكة ، و إذا كانت فأحر بها أن تكون بعد توليه الوزارة .

ذكر الطبرى فى تاريخه أن الرشيد جدد البيعة لولديه المأمون والقاسم بعد أخيهما الأمين ، وسمى القاسم بالمؤتمن عام ١٨٩ وذكر أن النواسى قال فى ذلك قصيدته التى منها :

تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضـل هروناً على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء

وحادثة تجديد البيعة تأتى بعد وزارة الفضل بسنتين ، فهل مدح الرشيد قبل ذلك ؟ من المرجح أن تكون قصيدته التى يقول فيها :

يلقى جميع الأمر وهو مقسم   بين المناسك والعدو الموفق
حتى إذا أمضى عزيمة رأيه   أخذت بسمع عدوه والمنطق
إنى حلفت عليك جهد ألية   قسماً بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته   وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه   لتخافك النطف التى لم تخلق

قيلت بعد نصرة الرشيد على نقفور فى عام ١٨٧ ﻫ فقد كان هذا الانتصار موسماً للشعر والشعراء تباروا فى مدح الرشيد بالقصائد الجياد . مدحه أبو العتاهية بقصيدتين ذكرهما الطبرى فى حوادث هذا العام ، ومدحه محمد التيمى بقصيدة وأشجع السلمى بالقصيدة التى ذكر منها صاحب الأغانى هذا البيت :

لا تبعد الأيام إذ ورق الصبا   خضل وإذ غض الشباب نضير

وللنواسى قصيدة ثالثة فى مدح الرشيد وهى التى يقول فيها :

فى كل عام غزوة ووفادة   تنبت بين نواهما الأقران

ومن النظر فى أبياتها يرجح أنها قيلت بمناسبة القلنسوة التى لبسها الرشيد وكتب عليها « غاز حاج » . وهى بعد تاريخ

القصيدة الثانية بثلاث سنوات ، فتكون قصيدة عام ١٨٧ للهجرة هي أول قصيدة قالها في مدح الرشيد ؛ وهو العام الذي تولى فيه الفضل الوزارة ؛ ولعله لهذا هو العام الذي طمع فيه بالوصول إلى سدته . فهل وصل إليها ؟؟ وكيف كان موقف الخليفة منه وما مقدار جائزته ؟ ؟ الأرجح أن النواسي وصل إلى الرشيد ، ولا شيء يمنع ذلك .

كان الرشيد يسمع شعر النواسي ويتذوقه ويعجب ببعضه . وما كان ليصح غير ذلك من خليفة كهرون ، له ذوقه الرفيع في الشعر ، وتقدير شعراء عصره الذين كاد النواسي يتغلب عليهم .

روى أبو الفرج في أغانيه « عن المفضل بن اليزيدي قال : حدثنا إسحق الموصلي قال دخلت على الرشيد يوماً وهو يخاطب جعفر بن يحيي بشيء لم أسمع ابتداءه وقد علا صوته . فلما رآني مقبلاً قال لجعفر : أترضى باسحق ؟ قال جعفر : والله ما في علمه مطعن إذا أنصف . فقال : أي شيء تروى للشعراء المحدثين في الخمر ؟ أنشدني أفضل ما عندك ، وأشده تقدماً . فعلمت أنهما كانا يتماريان في تقديم أبي نواس فعدلت عنه إلى غيره لئلا أخالف أحدهما فقلت : لقد أحسن أشجع بقوله :

ولقد طعنت الليل فى أعجازه بالكأس بين غطارف كالأنجم
يتمايلون على النعيم كأنهم قضب من الهندى لم تتثلم
فقال لى الرشيد : قد عرفت تعصبك على أبى نواس وانك عدلت عنه متعمداً . ولقد أحسن أشجع ولكنه لا يقول أبداً مثل قول النواسى :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى. ولم أنم[1]

فقلت له : ما علمت ما كنتما فيه يا أمير المؤمنين ، وإنما أنشدت ما حضرنى .

فقال : حسبك قد سمعت الجواب . . »

وهذه الحكاية تدلُّ على شيئين ، أولهما أن الرشيد كان يستطيب شعر النواسى ويفضله على غيره ، ويرى أنه صاحب طريقةٍ فى وصف الخمر لا تعلو عليها طريقة ؛ والثانى وهو أكثر من هذا أهمية هو ميل جعفر عنه ، وتعصبه عليه . فلا جرم أن الرشيد كان يماريه وقد علا صوته — كما ذكر إسحق — ليقنعه بخطل رأيه

وذكر ابن منظور فى كتابه بعد أن أورد نوادره مع الرشيد واتصاله به ما يلى « وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال

---

(١) نرجح رواية ابن قتيبة فى أن هذه القصيدة لوالبة وقد ذكر أبو الفرج أيضاً — فى غير هذا الوضع — أنها لوالبة

أبي نواس إن هذه الحكايات والنوادر عنه وعن الرشيد موضوعات وإن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ، ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين وما ملك النواسي عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم » أما أن هذه النوادر موضوعة فما لا شك فيه . وأما أنه لم يدخل على الرشيد ولم يره ، ففيه كل الشك ، ولا يثبت عند تحقيق . فالرشيد البصير بمنزلة النواسي الأدبية وأنه إن لم يكن أعظم شعراء عصره فهو أوسعهم شهرة ، لا يغتفر له إن أغفل مدحه ، ولم يأت إلى بابه مع الشعراء ، يجيز هذا المنطق ويجيز أكثر منه قليلاً . ولكنه لا يجيز بحال أن يقبله شاعراً له ، متصلاً به . فقد اشتهر النواسي واشتهرت معه طريقته الفاجرة بالحياة ، وتغنت بغداد بها .

عند الخصيب

من الرواة من يذكر أن الخصيب استزاره لأنه كان يعرفه ببغداد . وليس ما يمنع ذلك . فولاية الخصيب فى زمن وزارة الفضل بن الربيع ويذكر ابن منظور أن النواسي دخل عليه فى زى الشطار ، وأن الخصيب ازدراه لذلك . وهى رواية ساقطة .

فما كان للنواسى أن يفعلها وقد أمضى أيامه ببغداد يتقلب فى غدواته بين دور البرامكة ، وآل الربيع ، وقصور الأمراء ، مثل أبى عيسى والعباس وغيرهما . ويعرف ما يجب عليه أن يفعل فى مجالسهم . ولم يتعلقوا به بغلطةٍ مثل هذه . ولا يجوز أن يكون استخف بالخصيب ، وقد ارتحل من بغداد وبينها وبين مصر شقةٌ بالغة . وقد ذكر النواسى الطريق التى سلكها إلى مصر فمن « عقرفوت » وهى قرية على نهر دجيل ، تبعد عن بغداد ستة فراسخ ، إلى « عين أُباغ » وهو مكان وراء الأنبار . ثم اتبع طريق الفُرات حتى النقيب، فتدمر ، فالشام . ومنها إلى الجولان فبيسان ، فالرملة . ومن هذه إلى غزة هاشم ، فالعريش ، ففسطاط مصر ، وذلك تفسير قوله[١] :

رحلن بنا من «عقرفوت» وقد بدا ... من الصبح مفتوق الأديم شهير
فما نجـدت بالمـاء حتى رأيتهـا ... مع الشمس فى عينى أباغ تغور
وغمرن من ماء النقيب[٢] بشربة ... وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين إشراقاً كنائس تدمر ... وهن إلى وعن المدخن صور
يأمن أهل الغوطتين كأنما ... لها عند أهل الغوطتين ثؤور

(١) رجعنا لتحقيق هذه الأسماء إلى معجم البلدان

(٢) ذكر صاحب معجم البلدان أن النقيب موضع بين تبوك والشام وليس هذا نقيب النواسى

وأصبحن بالجولان يرضخن صخرها ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد سنا صبحه للناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم وفى الفرما من حاجهن شقور
ولما أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها أن لا تزال مجير

ومن الجولان إلى بيسان أية طريقٍ سلك ؟ فلا بُدَّ له من المرور بوادى الأردن . فهوأقرب طريق من الجولان إلى بيسان. ومن يدر ينا ! فلعلَّ جبال عجلون المُطلّة على هذا الوادى الخصيب شاقته بمنظرها . والظاهر أنها لم تكن مشهورة بشجرة الكرمة شهرتها فى زمن اسرائيل ، أو فى الزمن الحاضر . فلم تستوقف نظره ليتغنى ويصف . ومدينة بيسان نفسها كانت من مدن الأردن فى ذلك الحين . وقد طالت إقامته بمصر — بعض الشىء — فهو يحنُّ إلى بغداد .

ليس لى مسعد بمصر على الشو ق إلى أوجه هناك حسان
إذ لباب الأمير صدر نهارى ورواحى الى بيوت القيان

وتختلف الرواية مرة ثانية فى المنزلة التى وصل إليها النواسى عند الخصيب . فمنها ما تذكر أنه نادمه ؛ على أن الواضح أنه استطاب مجلس النواسى ومدحه ؛ بدليل أن هذه الزَّوْرَة طالت ولو بعض الشىء كما أسلفنا . وما كان له أن يفرط فى مثله

وهو يعرف قوته الأدبية فى العاصمة التى يأتمر بأمر رجالاتها .
وهو يعرف — أيضاً — صلته بوزير الدولة الفضل . ولا يعنى ذلك أنه كان يتحسب منه من ناحية سياسية ، ولكنها عوامل تزيد قيمته .... ولندع حديث الرغبة والرهبة ، فالمدح البارع ، والذكر الحسن ، أشياء تشتاقها الأنفس ، ولا سيما أنفس الولاة والحكام . ومن هو الخصيب لولا النواسى ؟؟ هو والٍ للرشيد على مصر ، وكم للرشيد من والٍ عليها ، فمن يذكرهم ؟ لقد مررت على أسمائهم كلهم ، وها أنا أكاد أنساها ، ولما أفرغ من البحث الذى مررت بأسمائهم بسببه . أما الخصيب فهيهات أن ينساه قارئ أدب . إنه إن همَّ ذكرته إياه القصيدة التى منها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب نزور

لقد ابتنى فى مصر بلدة « مُنية » ، وما تعدل فى عالم الشهرة والخلود أية بلدةٍ هى بجانب قصيدة النواسى أو قصائده فيه .

ولم تستطع مصر فى ذلك الحين أن تشبع رغائب الشاعر المفتون بالمجون ، الشره للجمال . فقفل راجعاً إلى البلد الزاخر به ، والذى يعجُّ بكل ما هو جميل . عاد ليواصل سيرته ، ويقسم ساعات يومه . فصدر النهار لباب الأمير ، وعلّه الفضل بن الربيع ،

فقد كان يلقب الوزير بذلك ، وفى الليل يروح على بيوت القيان .

عاد لينقطع إلى الفضل وليشرك معه بعض الحين أمراء منهم العباس الذى مررنا بذكره ، ويهمنا مما قاله فيه بعد عودته من مصر قصيدته التى منها :

حلفت يميناً برة لا يشوبها ... فجار وما دهرى يمين فجار
لقد قوم العباس للناس حجهم ... وساس برهبانيــة ووقار
وأطعم حتى ما بمكة آكل ... وأعطى عطايا لم تكن بضمار

هذه الأبيات تعيننا على تعيين تاريخ نحن حريصون على تحقيقه . فقد ذكر المسعودى أن العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر بن المنصور حج فى الناس عام ١٩٢ هـ . ونرجح أن أبا نواس يشير إلى حجه فى هذه السنة . ولم الترجيح وإنما هو التأكيد . فقد رجعنا إلى الطبرى فى أسماء الذين حجوا فى الناس فى خلافة الرشيد فلم يكن من بينهم العباس إلا فى هذه السنة . وكان أبوه أمير الحج فى عام ١٨٨ هـ ، وتحقيق هذا يفيدنا أكبر فائدة فى تأريخ سجن الشاعر فى زمن الرشيد كما سيرى القارىء .

انتهت فترة خلافة الرشيد ، وكان حظ النواسى منها الاتصال الوثيق بالفضل وأبنائه ، ومن ولاته بالخصيب . وليس هو

بالاتصال ، و إنما هو انتجاع للرفد وعودة ، واتصال قليل بطائفة من الأمراء، وقد غلبه حسين الضحاك الشاعر على صالح وأبى عيسى ولدى الرشيد فراح يسعى للاتصال بولى العهد الأمين .

مع الأمين

مدح النواسى الأمين غير مرة وهو ولى عهد :

مد الإله عليه ظل مملكة يلقى القصى بها والأقرب الدانى
إن يمسك القطر لا تمسك مواهبه ولى عهد يداه تستهلان

ولكنّ هذا المديح لا يعين مقدار هذه الصلة . فقد مدحه كثير غيره من الشعراء « حتى شكا الرشيد إلى على بن العباس أن الشعراء قد أكثروا من ذلك لمكانه منه ومن أم جعفر وكادوا ينسون المأمون » . ولا يعين هذه الصلة أيضاً إطلاقه إياه من سجن أبيه . فقد تم ذلك بوساطة الفضل وشفاعته المقبولة عنده . ولعلّ فيما ذكره ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » ما يعينها ، ويبين درجتها ، أكثر من ذلك .

قال : « إن الرشيد أمر إبراهيم بن عثمان بن نهيك أن لا يأوى النواسى إلى عسكره من ليلته . فقال الأمين لإبراهيم : والله لئن

حصصت منه شعرة لأقتلنك . فأقام عند ابراهيم حتى مات هرون وأخرجه محمد الأمين . » والسبب الذى أمر الرشيد بسجن الشاعر من أجله معروف وإن لم يذكره ابن قتيبة ، وما هو إلا القصيدة التى هجا بها مضر ، والكاتب يروى عن أناس عاصروا الشاعر فهو ثقة . والحكاية دليلٌ على بلوغه لدى الأمين (ولى العهد) منزلة رفيعة يتهدد من أجلها رئيس شرطة أبيه بالقتل إن جرى أو جَروُ عليه بمكروه . بيد أن هذه المنزلة ما كان لها أن تتحوّل — فى زمن الرشيد — إلى أكثر من علاقة شاعر يمدح ولى عهد المسلمين لرفده وعطائه . وبعض الروايات تتزيدُ فى هذه العلاقة حتى تجعل من الشاعر — ابن المدينى — مرة ثانية . لا فى قصر الأمين ولى العهد ، ولكن فى قصر الأمين الخليفة .

طمع النواسى فى أن يكون شاعر الأمين — حينما أصبح خليفة — وأن يختص به ويصل منه إلى مرتبة النديم ، وكل الظروف تساعده على ذلك .

فإن لم يقدر الفضل بن الربيع على الوصول بشاعره إلى سدة الرشيد ، فهو قادر على الوصول به إلى مجاس لهو الأمين ،

فقد ذكره له وأطراه . ولما جاء الشاعر ليقابل الخليفة ، قال ابن جرير الطبرى : « وقال له الأمين كن من ندمائى » بلغ أمله ، وأدرك أمانيه ، ووصل إلى المنزلة التى تتطالُ إليها الأعناق ، وتتقطع دونها قلوب الشعراء . شاعر الخليفة ونديمه ! لقد كاد يجن بهذه الحظوة « رضينا بالأمين عن الزمان » وأى رضى ! ليس بعده ولا قبله من رضى يدانيه . صار نديمه وصار شاعره . فهو يقبل عليه بالمدح مسرعاً ، لا يتأنق فيه كما اعتاد . وأكثره من الشعر الذى ترغمه على قوله الحوادث . فإذا اتخذ الخليفة سفينة على هيئة الأسد ، أو الدلفين، أو الحية ، أو العقاب سارع إلى أن يقول فى هذا شعراً ، إن لم يرض رجال الأدب ، فقد أرضى به خليفته وحسبه هذا :

قد ركب الدلفين بدر الدجى مقتحماً الماء قد لججا
فأشرقت دجلة من نوره وأسفر الشطان وابتهجا

عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب

وهو من فرط جنونه بهذه المنزلة يسرف فى مدح الأمين ، ويبالغ كثيراً . وقد رَووا له أبياتاً فى هذا المعرض أوشكت أن

ترديه فى هاوية من الإلحاد ، وما زال نديم الخليفة وشاعره . فمن تحصيل الحاصل القول إنه اكتسب جاهاً ضخماً ، ومكانة مرموقة عند الناس . فقد جاء فى الأغانى وصف لهذه المنزلة فإن لم يذكر أن هذه الحادثة وقعت للنواسى فى زمن الأمين ، فلا سبيل إلى حملها على غير عهد الأمين : « عن الحسن بن على بإسناد عن هرون بن سعدان قال : كنتُ مع أبى نواس قريباً من دور بنى نيبخت بنهر طابق ، وعنده جماعة ، فجعل يمر به القواد والكتاب و بنو هاشم فيسلمون عليه وهو ممدود الرجل لا يتحرك لأحدٍ منهم .... حتى مرَّ به أبو العتاهية فوقف له » . ولكن كم دامت عليه هذه النعمة ؟ أقصرت مدتها أم طالت ؟ الأرجح أنها لم تدم أكثر من سنتين . فقد انبعثت الفتنة بين الأخوين ، وسُيِّرت الجيوش لتقطيع الأرحام ، وتواترت الروايات على أنه ترامى للأمين الكلمة التى فاه بها الحسن بن سهل فى خراسان ، وهى: كيف لا يحل قتال الأمين وشاعره ونديمه يقول:

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

فغضب على شاعره ، واتهمه بالزندقة ، ووجد من بنى هاشم من يغريه عليه ، فزجَّ به فى السجن ، ثم أطلقه . ولكنها الفتنة ،

صيرت أمر الأمين إلى انتكاس فجيوشه تهزم وتحطم ، وجنده يشغب به .

يذكر ابن قتيبة أن الأمين وصله بعشرة آلاف درهم حينما بعثه من قبره ، كما يقول النواسى فى نعت سجنه . وهى عطيةٌ ليست بالبالغة ، بل إنها دون ما اعتاد أن يعطى . فهل عاد إلى مدحه ومنادمته بعد السجن ؟؟ يتفرد الطبرى فى تاريخه بهذه الرواية وهى « ذكر يعقوب بن اسحق عمّن حدَّثه عن كوثر خادم المخلوع أن محمداً أرق ذات ليلة وهو فى حربه مع طاهر ، فطلب من يسامره فلم يقرب إليه أحدٌ من حاشيته . فدعا حاجبه وقال له : ويلك قد خطرت بقلبى خطرات فأحضرنى شاعراً ظريفاً أقطع به بقية ليلتى . فخرج الحاجب فاعتمد أقرب من بحضرته فوجد أبا نواس ، فقال له : أجب أمير المؤمنين . فقال له : لعلّك أردت غيرى . قال : لم أرد أحداً سواك . فأتاه به فقال: من أنت؟ قال : خادمك الحسن بن هانىء ، وطليقك بالأمس . قال: لا ترع. عرضت بقلبى أمثالٌ أحببت أن تجعلها فى شعر ، فإن فعلت ذلك أجزتُ حكمك فيما تطلبه . فقال: وماهى يا أميرالمؤمنين ؟ قال: قولهم « عفا الله عمّا سلف» و « بئس والله ماجرى فرسى » و « ا كسرى

عوداً على أنفك » و « تمنعي أشهى لك » قال فقال أبو نواس: حكمي أربع وصائف مقدودات . فأمر باحضارهن فقال :

فقدت طول اعتلالك ... وما أرى فى مطالك
لقد أردت جفائى ... وقد أردت وصالك
ماذا أردت بهذا ... تمنعى أشهى لك

وأخذ بيد وصيفة وعزلها وقال :

قد صحت الأيمان من حلفك ... وصحت حتى مت من خلفك
بالله سق فاحنسى مرة ... ثم اكسرى عوداً على أنفك

ثم عزل الثانية وقال :

فديتك ماذا الصلف ... وشتمك أهل الشرف
صلى عاشقاً مدنفاً ... قد اعتب مما اقترف
ولا تذكرى ما مضى ... عفا الله عما سلف

ثم عزل الثالثة وقال :

وباعثات إلى فى الغلس ... أن ائتنا واحترس من العسس
حتى إذا نوم العداة ولم ... أخش رقيباً ولا سنا قبس
ركبت مهرى وقد طربت إلى ... حور حسان نواعم نس
فجئت والصبح قد نهضن له ... فبئس والله ما جرى فرسى

فقال له : خذهن لا بارك الله لك فيهن » . وليس فى هذه الرواية ما يمنع من قبولها وتصديقها . فأربع جوارٍ لا قيمة لهن ، يمنح مثلهن حاجب الخليفة ووزيره . وأبو نواس وإن لم يكن

يجرى مع أبى العتاهية فى البديهة والارتجال ، إلا أنه قادرٌ عليه .
وله مع رفاقه الشعراء مساجلات ومطارحات هى عفو الساعة وأجود من الأبيات المروية . والأمثال التى أراد الخليفة نظمها شعراً تجرى مع شبه الحال التى هو فيها ، فهو يرى أن أمره صائرٌ إلى الزوال . فلعله فكر فى ذلك فلام جدَّه العاثر وتمثل « بئس والله ما جرى فرسى » . ثم تمنى أن يعود حاله وحال أخيه إلى ما كان عليه و « عفا الله عما سلف » . ثم إن المثلين الآخرين لا يبعدان عن وصف ما هم فيه فهما فى حديث الخيبة والإخفاق ...
بقى شىء آخر دخل الحكاية فأضعفها ، وهو سؤال الأمين لأبى نواس من أنت ؟ . إن هذا السؤال لا يمكن أن يحمل على محمل الاستفهام ، إلا إذا افترضنا أن الخليفة لم يكن يسمر فى قصره ، بل فى إحدى شرفاته . وفيما عدا هذا فهو استخفافٌ وإنكار . أيسأل الأمين النواسى من أنت ، ويجيبه بالحسن ابن هانىء ، وأين المدح العالى ، وأيام المنادمة ولياليها ، وأحاديث السمر الفكه ؟ وإذا جوزنا هذا الافتراض وهو أن الخليفة كان يسمر فى شرفة ولم يتبينه ، أو استخفً به ، وأخذنا بهذه الحكاية وهى مقبولة رغم نقطة الضعف فيها ، بقى جواب الخليفة وهو

« لا ترع » — وهى كلمة تدلُّ على أن النواسى لا يزال يتحسب من الخليفة ، وأن الخليفة يقدر هذا . وهى حال ٌ لا تعين على أن يكون النواسى قد عاد إلى موضع حب الخليفة و إيثاره ، وسابق مكانته عنده . ومن العبث القول بعد هذا إنه لم يعد إلى منادمته. فقد أخذ يشتدُّ فى نهيه عن شرب الخمر . وأبو نواس يقول فى هذا شعراً ويذيعه . ولعلّ الخليفة يؤثر هذا الشعر و إذاعته ، ليسمع به الناس ولتنقله الركبان إلى فارس فيكون فيه الرد الكافى على كلمة الحسن بن سهل :

أيها الرائحان باللوم لوما ... لا أذوق المدام إلا شميا
نالنى بالملام فيها إمام ... لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فانى ... لست إلا على الحديث نديما

إلى غير ذلك من القصائد التى تصف نهى الأمين له عن الشراب ، وتأوهه على ذلك ، و إطاعته له فيه .

ومما يزيد فى هذا الترجيح ، وهو أن النواسى لم يعد إلى سابق مكانته عند الخليفة ، أننا نرى فى هذه الفترة من حياة الأمين غلبة شاعر آخر عليه ، هو الحسين الخليع الذى أخلص له وتفانى فى حبه ،

حتى موته ، وأكثر من هجاء المأمون حتى أشفق عليه أبو العتاهية فنهاه

ولعل فى حديث غلبة هذا الشاعر على الأمين، وسجن الخليفة للنواسى ، ما يفسر لنا الأبيات التى نقع عليها فيما روى الأدب لأبى نواس وفيها تعريض بمحمد الأمين ، حتى قال المأمون إنى لأتوقع أن يهرب إلينا .

غِنًى بين الحقيقة والخيال

تقول الأساطير الموروثة وليالى « ألف ليلة وليلة » إن النواسى شاعر الخليفتين الرشيد والأمين ، و إنهما استطابا مجلسه وفكاهته فهو يدخل متى شاء و ينصرف متى أراد .

ويقول التاريخ إن هذين الملكين — الرشيد والأمين — يعطيان بغير حساب من هذه الأموال التى تتدفق عليهما بغير حساب . فمن حظاه برضى فقد أغنياه . فهو فى نعم وآلاء ، له الجوارى والغلمان ، وله إن أعقب الرضى رضى القصور ذات الرياش ، والضياع العامرة الفساح .

وتقول أساطير « ألف ليلة وليلة » وكأنها « تتمنطق »: ومازال

النواسى النديم المصطفى ، والمهرج الذى يخف على قلب الملكين ، فله الحظ الأوفى من هذه النعم ، وأيسر أعطياته ما شاءت ساعة الرضى ، من ذهب وجوهر . ويأتى التاريخ ليصحح الأسطورة فى موضع ، ويقرّها فى مواضع . فالخليفتان كلاهما أخرق المنحة مسرفٌ فى العطية ، ومنها الذهب والجوهر . ولكن النواسى لم يكن بالموضع الذى وصفت من الرشيد . نادم الأمين مُديدة كانت فى أخريات أيامه . ولم يكن حظه منه ما أمل وهو القائل له :

أقصيته ونسيته ولعهده بك غير ناس
قد كنت آمل غير ذا لو كنت تنصف فى القياس

فصححى يا أسطورة هذا الموضع من الكتاب . فتقول الأسطورة : ولكنه أمتع ما فى الكتاب . . فامض يا تاريخ لوجهتك وسأمضى أنا ، وسترى أينا الأقوى . إن حقائقك تعيش فى أذهان بعض الناس . أما أوهامى ففى أذهان كل الناس . ولئن كانت حكاياتك فى أذهان هذه الفئة من أصحابك عرضة للشك ، ومظنة للارتياب ، إنّ أوهامى فى أذهان أصحابى فوق الشك وفوق كل ارتياب .

فإذا ذكر النواسى ذكر الرشيد وذكر الأمين ، وذكر الثراء والنعم الموصولة السابغة ، فهل هذا هو الصحيح ؟

قدم النواسى بغداد ، لا يملك من الأداة التى تعين على العيش فى العاصمة ذات التكاليف إلا الشعر ، وهو نعم الأداة — فى ذلك العصر — يستطيع صاحبها أن يعيش بها ويدرك الجاه والثراء إن واتاه الحظ ، وأسعفته المقادير ، وكأنه وهو يجتاب ما بين البصرة وبغداد يتغنى بأبياته ، أو يزوّر معناها فى خلده إن لم يك نظمها بعد .

سأبغى الغنى إما جليس خليفة	يقوم سواء أو مخيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جنانه	إذا نوه الجمان باسم قتيل
نخمس مال الله من كل فاجر	أخى بطنة للطيبات أكول
ألم تر أن المال عون على التقى	وليس جواد معدم كبخيل

وأسعفه الدهر ، فمدح خليفة هو الرشيد ، وجالس خليفة هو الأمين . فهل أدرك المال الذى يقول (إنه عون على التقى) لو كان التقى يدرك به فحسب لكان من أتقى خلق الله . فقد أخذ من الذين مدحهم مافيه الكفاية وفوق الكفاية . وعاش دهره هذه العيشة المرفهة الموسعة مع أن ما أخذه من هذا المال

هو دون قدره — فى عالم الشعر — ودون حظ رفاقه من الشعراء ومن يعلو عليهم درجات .

فقد ذكرت كتب الأدب أن سلماً الخاسر خلّف ثروة طائلة تقدر بخمسين ألف دينار عدا الضياع . ومثله بل يزيد عليه مروان ابن أبى حفصة الذى تناول من يد الرشيد على قصيدته التى يقول فيها :

وشدت بهرون الثغور فأحكمت | به من أمور المسلمين المرائر
أبوك ولى المصطفى دون هاشم | وإن رغمت من حاسديك المناخر

جائزة قدرها خمسة آلاف دينار ، وخلعة ، وعشرة من الرقيق الرومى ، و برذوناً من خاصة مركبه[1]

وذكرت أن أباناً اللاحقى أخذ منه جائزة قدرها عشرون ألف درهم على قصيدته التى منها :

نشدت بحق الله من كان مسلماً | أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة | لديه أم ابن العم فى رتبة النسب[2]

ولا يقلُّ عن هؤلاء بل يزيد عليهم حظُّ العتاهى . وإذا كانت قصيدتا ابن أبى حفصة وأبان قيلتا لغرض سياسى ،

---

(١) الطبرى الجزء السادس صفحة ٥٢

(٢) الأغانى جزء ٢٠ صفحة ٧٥

فتكافأت جوائزهما مع مقدار التشيع للبيت العباسى ، والنفاق لرجاله بالزراية على البيت العلوى ، فقد ذكرت كتب الأدب أن غيرهما أخذ من الرشيد جوائز لا تقل عن هذه . ذكروا أنَّ الشاعر العمانى أخذ من الرشيد جائزة قدرها ثلاثون ألف دينار[(١)] على قصيدته التى وصف بها مناعم بغداد وسلك فيها جانب الفكاهة حيث يقول :

ثم أتوهم بالدجاج الدجج بيرن شواء وقديد منضج

فماذا أخذ النواسى من الرشيد ، وقد مدحه فى ثلاث قصائد أو أكثر ؟؟ لم تذكر كتب الأدب شيئاً من ذلك . ولا مرية فى أنه أخذ — لو أنّه وصل إليه — فما كان لشاعر أن ينصرف من لدن الخليفة الرشيد ، بدون هبة ؛ ولا مرية أيضاً فى أنه إذا وصل إليه وأخذ شيئاً فقد كانت الهبة دون تلك ، لأنها لو كانت وافرة لذكرتها الروايات . على أن عطايا الخليفة ليست هى المورد الرئيسى للشعراء ؛ فهناك الأمراء والوزراء . فما هو حظُّ النواسى منهم ؟

هناك البرامكة وأعطياتهم البالغة . جاءهم النواسى وهم كما

---

(١) الأغانى جزء ١٧ صفحة ٨٢

يصف فى مدح الفضل بن يحيى (ترى الناس أفواجاً إلى باب داره)

وهو وإن ظل يقبل ويدبر مع هذه الأفواج الساعية إلى رفدهم ، فلم يكن له منهم كبير حظ . وكان أشد ما يكون نقمة على جعفر ، صاحب الأمر والنهى . والناظر فى هجاء النواسى لا يشك فى أنه كان يحرمه ولا يكافئه على مدحه . وليس أدل على ذلك من هذه الأبيات التى نرويها . وقد جاءت كأنها « قصة » :

فأنشدته مدحى البرمكى ... أبا الفضل أعنى الفتى جعفرا
فأعجبنى ظرفه إذ يقول ... مديحك در فهل دررا
فقلت مقال امرىء شاعر ... أدافع عنه لكى يعذرا
إذا ما مدحت امرءاً من (خ ...) ... أليس جزائى أعطى (الخ ...)

وهذا هجاء موتور ، ولا سيما البيت الأخير ، وفيه الدلالة على أنه كان يحرمه . ثم يخرجه الغيظ عن حد المنطق والصواب فيرمى جعفراً بالبخل :

أرى جعفراً يزداد بخلا ودقه ... إذا زاده الرحمن فى سعة الرزق

ثم يعم البرامكة فى الهجاء :

هذا زمان القرود فاخضع ... وكن سامعاً مطيعا
كأنهم قد أتى عليهم ... ما غال اسماعيل والربيعا

إذاً فقد يئس من البرامكة نخسر بهذا مورداً للمال ، ورجالاً يهبون من المال ما لا يقل عن هبات الخليفة ، فلو أسعفه الحظ وتولوا أمره ، لصدقت الأساطير فيما تروى عنه من البذخ والترف .

فهل عوضه آل الربيع الذين صار إليهم ما يهون عليه ألم هذه الخسارة ؟ إن الوظائف التي تقلدها الفضل بن الربيع هى ديوان النفقات عام ١٧٢ هـ ، وهى الوظيفة التى كان يتقلدها حين قدوم النواسى دار السلام ، ثم الوزارة عام ١٨٩ للهجرة وهو العام الذى نكب فيه البرامكة . فأين ديوان النفقات من وزارة البرامكة ، وأين مقدرة الفضل بن الربيع من مقدرة جعفر ورجال البرامكة وقدرتهم على النفع والضر والهبات ؟ لم يكن الفضل ابن الربيع رجل اليوم وإنما هو رجل الغد المرموق .

لم تذكر الروايات الأدبية هبات آل الربيع وعطاياهم لشاعرهم المقبل عليهم بمدائحه ، والذى سينقطع إليهم بعد حين . ولكننا نتكهن أنه لم ينل منهم خيراً ينقع الغلة قبل أن يتولى الفضل الوزارة ، ويصبح واسع الحول والطول ، قادراً على النفع والضر . ولا شك فى أن هذه القصيدة التى يسأل فيها العباس بن الفضل مركباً برذوناً ، أو بغلا ، أو حماراً ، قيلت قبل وزارة أبيه .

عنيت بمركب البرذون حتى أضر الكيس إغلاء الشعير
فحلت إلى البغال فأعوزتنى فحلت من البغال إلى الحمير
فأعيتنى الحمير فصرت أمشى أزجى الرجل كالرجل الكسير

ومثلها القصيدة التى يصف فيها حاله ، وأنه بلا نشب قد خفّ ظهره وقل زواره ، وماتت أوطاره ، وأنه :

من نظرت عينه إلى فقد أحاط علماً بما حوت دارى
خبزى من البيت كامن وعلى مدرجة الطريق أسرارى
إنى انتجعت العباس ممتدحاً وسيلتى جوده وأشعارى
إنى حرى بأن يبدلنى جود يديه يسراً باعسار

وهى قصيدةٌ شا كيةٌ موجعةٌ بالغةٌ فى الشكوى والتوجع .

ولقائل أن يعترض بأن الشاعر يهوِّل فى وصف حاله ليحتال على هذا الفتى فيستدل معروفه . وهو اعتراضٌ وجيهٌ . فلا شك أن النواسى أراد التهويل ، وبالغ فى الشكوى ليصل إلى معروف صاحبه ، فلم يعسر ولا ضاقت ذات يده — فى يوم — بالقدر الذى وصف . ولكن يبقى شىء آخر ، وهو أنه لم يكن قادراً على قول هذا لو كانت أعطيات القوم له بالغة ، و إلا فإنهم يعدون مثل هذه الشكوى منه كفراناً بالنعمة .

لم تكفه أعطيات آل الربيع ولا استطاعت أن تقوم بأمره . فغدا على غيرهم من الأمراء كما أسلفنا ، وارتحل إلى مصر .

وإذا كانت هنالك عطية حرية أن تجزُل وتعظم ، فهى عطية الخصيب لما يتجشم لها من مشاق ، فمنَّى النفس وأسرف فى الأمانى والخصيب بعد والٍ على مصر :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر
لا تقعدا بى عن مدى أملى شيئاً فما لكما به عذر

فهل قعد به الخصيب عن مدى أمله ؟

إنى لآمل يا خصيب على يدك اليسارة آخر الدهر
وكذاك نعم السوق أنت لمن كسدت عليه تجارة الشعر
فانقع بسيبك غلة نزحت بى عن بلادى وارتهن شكرى

فهل نقع الخصيب غلته ، وهل قدر على أن يرتهن شكره ؟ ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نقف قليلاً عند هذا الشطر من الشعر « كسدت عليه تجارة الشعر » لنسائل أنفسنا : أكان أبو نواس منصفاً فى وصف سوق الشعر ببغداد ؟ ؟ والجواب : نعم ، ولا . نعم ، فما كان سوق شعره رائجاً عند «صيارفة المال» ببغداد كما كانت الحال عند غيره من الشعراء الذين هم أقلُّ قيمة فيما يعرضون من بضاعة . فليس له من الرشيد حظ ولو دون حظ النميرى والعتاهى وابن أبى حفصة بعشرات الدرجات . وباعدت الظروف بينه وبين البرامكة ، وغلبه الخليع على صالح

وعيسى ولدى الرشيد . والجواب : لا ، لأن هؤلاء الأمراء والعظماء الذين كان يتردد على قصورهم بالمديح ، لم يكن ينصرف من لدنهم بدون أعطيات ؛ وإلا فكيف كان يستطيع أن يعيش هذه العيشة اللاهية العابثة المترفة بين الخمور والقيان وفى حدائق بغداد ؟ .

قطربل مربعى ولى بقرى الـ ... كرخ مصيف وأمى العنب
ترضعنى درها وتلحفنى ... بظلها والهجير يلتهب

ونعود إلى حديث الخصيب ونجيب : إنه لم يقدر على أن يرتهن شكره ، فقد هجاه واتهمه بالبخل والكزازة :

جعل الطعام على بنيه محرما ... قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا ... طرب الصيام إلى أذان المغرب

وقال فيه وأفحش :

نفس الخصيب جميعه كذب ... وحديثه لجليسه كرب
تبكى الثياب عليه معولة ... أن قد يجر ذيولها كلب

يقول ابن منظور إن النواسى ذكر له أن الخصيب لم يهب له سوى مائة دينار .

وقد أراد النواسى أن يظفر من مصر بالثراء فأقبل على سراة القوم يمدحهم فلم يحظ منهم . فأقبل على أهل مصر يعمهم

بالهجاء مستثنياً واحداً منهم هو « ابن جوى »

يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم لما حوى قصب السبق الساميح
أموالكم جمة والبخل عارضها والنيل مع جوده فيه التماسيح

هذا هو حديث النواسى من ناحيته « المادية » وما أكثر ما كرّر مثل هذه الشكوى :

يا عمرو ما الناس قد كلفوا بلا ونسوا نعم
أترى السماحة والندى رفعا كما رفع الكرم

وقوله وهو أبينُ وأفصحُ فى الإعراب عن الشكوى :

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا خلفاً فى أراذل النسناس
كلما جئت أبتغى الفضل منهم بدرونى قبل السؤال بياس
وبكوا لى حتى تمنيت أنى مفلتٌ عند ذاك رأساً برأس
فى أناس تعدهم من عديد فاذا فتشوا فليسوا بناس

وأكثر من مثل هذا القول :

إن دام إفلاسى على حاله هجرت إخوانى وأصحابى
وبعت أثوابى وإن بعتها بقيت بين الدار والباب

وقوله :

الحمد لله ألم تنهنى تجربة الناس عن الناس
فامنع عن النفس هواها فقد أذلنى للناس إفلاسى

وهى أبياتٌ تعين الباحث على معرفة حال النواسى المادية كثيراً . فكلمة الإفلاس تتردد كثيراً فى شكواه . والإفلاس

لا يعنى حالة موجعة مطردة ، وإنما يعنى حالتين — حالة يسار أو شبهها كان بها المفلسُ ، ثم الحال التى صار إليها بعد أن فقد اليسار . وأفلس من معناها فى اللغة أصبحت دراهم الرجل فلوساً. وهذه هى الحال مع أبى نواس، فيا شدّ ما أصبحت دراهمه فلوساً، فهو يشرب الخمر ويلهو ويغدو على القيان والغلمان . وهى أحوالٌ ترضى معها الدنانير وتدع الدراهم بمرتبة دون مرتبة الفلوس . وأبو نواس يعلمُ أن الخمر هى التى تصنع به ذلك، تقللُ فضله عند القوم السَّراة فيطففون هباته وينفق فى سبيلها هذه الهبات .

والراح أهواها وإن رزأت ... بلغ المعاش وقللت فضلى

وهناك سبلٌ أخرى غيرها للافلاس. فقد كان الرجل مسئولاً عن ذوى رحم — وهذه طريقةٌ ثانية للانفاق . وهو بعد زعيمُ طريقة فى الأدب والحياة ، له رفاقه ومريدوه ، يقبلون عليه ليغدوا معه على حانات بغداد ، وحدائق القفص إن لم يكن ذهابه إلى الأخيرة فى ركاب أمير . وهؤلاء الرفاق والمريدون يقبلون عليه ما وسعهم يساره فإن أفلس فقد جذّوا حبله :

صل من صفت لك فى الدنيا مودته ... ولا تصل باخاء حبل جذاذ

يعوذ بالله إن أصبحت ذا عدم ... وليس منك إذا تثرى بمعتاذ

وهى طريقةٌ ثالثةٌ للانفاق لعلها أكثر من غيرها التهاماً للمال ، وتضييعاً له . يضاف إلى هذه خلق أبى نواس السمح الذى يرى فى المكاس ضراعة ، وفى مساومة الخمار عاراً .

أعاذل ما فرطت فى جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبيع
أسامحه إن المكاس ضراعة ويرحل عرضى منه وهو جميع

ويأتى من وراء هذا كلّه مذهبه فى الحياة وليس من شأنه أن يعين على ثراء .

فاشرب وجد بالذى تحوى يداك لها لا تحذر اليوم شيئاً خوف فقر غد

فعاش عمره يراوحه اليسار ، ويغاديه بعض الحين الإفلاس . ومات ولم يخلف شيئاً .

معيشةٌ ومذهب

لم يك تردد النواسى على هؤلاء العظماء والوزراء وأكابر الناس ببغداد ، وحبُّه فى أن يحسب على بعضهم ويعد من مواليهم إلاّ لأنهم السبب الذى يعينه على العيش . فهو محتاج إليهم لهذا . ولو أسعفته المقادير ، واستقلت ثروته بلذته كما يقول لما غدا على باب أحد منهم ، ولآثر عليهم وعلى أبوابهم،

أبواب الحانات يقرعها وقد ترفعت الثريا ، وحياة يقضيها كما يشتهى « صريع غزلان وكاسات » فى حدائق القفص ، وقُرى الكرخ . فالتردد عليهم ومدحهم ضرورة قسرته عليها الأيام

وقد كانت الخمر كثيرة وميسورة ببغداد ، يشربها جلّ طبقة النواسى ويصفونها ويصورون كلفهم بها . ولكنه أربى عليهم فى هذا الوصف والتصوير . وظنى أنه أربى عليهم بشربها

فشربنا شرب قوم عطشوا من عهد عاد

وكان عشق الغلمان معروفا لا يكاد يكون مستنكراً ، ولكنه زاد على من تلا ولحق . وكان العصر سوق جوار وإماء . فطربت لهن النفوس ، وتغزل بهن الشعراء ، وكلف بهن النواسى كلفاً شديداً . ولم يقصر عن غيره بل ربما زاد عليهم . أخذ بهذه الحياة فى البصرة فتى لم يطرّ شاربه ثم تفرغ لهذه الحياة ببغداد وقد رضى بها عن كل مطمح .

رضيت من الدنيا بكأس وشادن تحير فى تفصيله فطن الفكر

فإذا ساعفته الدراهم والدنانير سار إلى هذه الخمارات المبثوثة فى أطراف العاصمة ، أو فى القرى المجاورة ، والتى يقوم عليها كما يقول النواسى دهاقين من المجوس أو اليهود أو اليهوديات ، أو

من أصحاب الملل الأخرى التى تبيح لمعتنقيها شرب الخمر والمتاجرة بها ، وكان أبو نواس ومن على شاكلته يطرقون أبواب هؤلاء الناس فيفتحون لهم ، بعد أخذ ورد قليل ، ليتعرفوا وجوه القوم ، ويظهر من ذلك أن بيع الخمر لم يكن ليتم للمسلمين إلاّ باحتراس قليل . لأن الحد فيها وإن تغوضى عنه وأهمل ، لم يكن قد أبطل . فكان أصحاب الخمارات يتوجسون من السعايات .

فقرع من إدلاجنا بعد هجعة وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تناوم خوفاً أن تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب

ويتوجسون أيضاً من أن يكون هؤلاء المدلجون من الذين تكثر عربدتهم ويماكسون وقد لا يدفعون . ولكن هؤلاء الدهاقين يعرفون صاحبنا حتى كلابهم تألفه فلا تهر عليه :

إلى بيت حان لا تهر كلابه على ولا ينكرن طول ثوائى

ويعرفون جماعته فهو لا يصحب إلا السراة الأماثل :

وأصطحب القوم السراة كأنهم نجوم تراءت من مطالعها الزهر

وفتية كمصابيح الدجى غرر شم الأنوف من الصيد المصاليت
صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا فليس حبلهم منه بمبتوت
نادمتهم قرقف الإسفنط صافية مشمولة سبيت من بيت تكريت

وندیمی كل خرق زانه عتق نجاره

ويعرفون منه غير ندمانه ورفاقه ، سرفه وعدم مماكسته وأنه

يدفع فوق ما يطلب منه ، وتلك سجية ترغمهم على الترحيب به ، وإظهار البشاشة والإعزاز له . وخلة أخرى وهى كرهه للعربدة ، وأنه لا يطيقها فى مجلسه حتى لكأنه يتفقد رفاقه قبل الشرب هل فيهم عربيد ، ثم يقول لهم قبل البدء فى الشرب : إن هذه الكأس مشغلة بلذاتها ، فاتركوا الحديث فيما عداها لئلا يؤدى الأمر إلى مُلاحاة :

فى الكأس مشغلة وفى لذاتها فاجعل حديثك كله فى الكاس
صفو التعاشر فى مجانبة الأذى وعلى اللبيب تخير الجلاس

ثم يُريهم أن الأخلاق السائغة ، وتجنب المشاكسة والعربدة صفاتٌ يدلّ بها صاحبها ويفتخر :

لمثلى من الفتيان حلت أخى الخمر وطابت له اللذات واسترخص السكر
إذا كان سكرى لا يكدر مجلسى ولا يعترى فيه خصام ولا هجر

وغريبٌ أن ينشد هذا الخلق « الابتعاد عن الخنا » :

خلتـا شر تشينان الفتى حيثما حل ، الخنا والعربدة

ثم يردد هذا مرة ثانية :

نداماى طول الدهر خرس عن الخنا وعمى عن العوراء نزه عن الكبر

وهو يفرق فرقاً شديداً من أن يصيره الشراب هُزأة للناس :

إنى بعينى أن أراك جنية بعد العشاء تقاد بالأشطان
وأراك قدام المنار كبومة عمياء وسط جماعة الغربان

وإذا نزل الربيع السهل ، وأورقت البساتين ، واخضرت الكروم سار إليها يتخيرُ موضعاً لشرابه :

على خزاماها وحوذانها ومشكل من حلل الزهر
يا حبذا الصبحة فى العمر وحبذا نيسان من شهر

وهو يشربها فى غير الربيع وغير الشتاء ، فى كل فصل وفى كل حين . ولعله إذ يذهب إلى الحدائق المونقة ، والسهول المرعة نهاراً ، لا ينسى أن يسير إلى الحانات ليلا ، فإن له ولعاً فى الشرب فى سواده ، إذ هو أعون على الملاهى . وإذا أعوزه النديم ولم يستطع السير إلى هذه الحانات ، والغدو إلى الحدائق المونقات ، لسبب من الأسباب ، شربها وحده . ونادراً ما كان يفعل فهو لهذا كاره :

نادمتها إذ لم أجـد مسعداً أرضاه أن يشركنى فيها
شربتها صرفا على وجهها فكنت ساقيها وحاسيها

ولا بُدّ مع الكؤوس فى هذه المجالس من نقر على العود ، ذلك أقدح للصفاء وأتم للسرور :

فاستنطق العود قد طال السكوت به لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

وهو يرى ذلك شيئاً لازماً :

ولا تشرب بلا طرب ولهو فان الخيل تشرب بالصفير

أمضى النواسى عمره أو أكثره فى هذه المجالس وهو القائل :

كفيت الصبا من لا يهش إلى الصبا وضيعت منه ما أضاع مضيع
أعاذل ما فرطت فى جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبيع
أعاذل خلينى أرو شبيبتى فان بان لى رشد فسوف أريع

فهو دهره مفتون بالخمر ، وما يتبع الخمر من لهو . ولم يك هو وحده فكثيرٌ أدركتهم هذه الفتنة . وانظر إليه يصف بغداد غبَّ شهر من أشهر الصيام :

فليس يسمع إلا صوت غانية مجهودة جددت عهداً لمقترح
والخمر قد برزت فى ثوب زينتها فالناس ما بين مخمور ومصطبح

ولا ريب فى أن الناس لم يكونوا كلهم كما وصف ما بين مخمور ومصطبح، ولكن أكثر الناس الذين عرفهم كانوا كذلك . وهم الطبقة العليا فى سلم الاجتماع .

ولمَ كل هذا ؟ أو بالحرى لمَ استوفى هذا العصر كل هذه المناعم والمباهج بين العصور ؟ ولمَ شُدت أعصاب النواسى ورُكزت على هذا النحو ؟ وهى أسئلة لا تلقى جواباً ، لأنه فى السؤال الأول يحتاج إلى الإطالة ، والثانى هو للمجهول والغيب . وقد ألح الناس على النواسى فى هذه الأسئلة ، فأجابهم بأجوبة مختلفة متفرقة ، ولم يصدق إلا مرة .

قال إنه يشرب الخمر ليلهو بها عن همومه :

صفراء تنسيك الهموم إذا بدت وتعير قلبك حلة السراء

وخال أن الناس خليقون أن يصدقوه فردد هذا العذر مرات :

أديرا على الكأس تنكشف البلوى وتلتذ عينى طيب رائحة الدنيا

لست أرى لذة ولا فرحا ولا نجاحا حتى أرى القدحا

نعم سلاح الفتى المدام إذا ساوره الهم أو به جمحا

وهو غير مُطالبٍ بأن يبوح للناس بمآتى همومه ، ولكنه يذكر بعضها أحياناً ، فإذا هى همومٌ على أحبة لم يفوا ، وشوادن لم يسعفوا ، وألاّفٍ نزحوا .

دعت الهموم إلى شغاف فؤادى وحمت جوانب مقلتى ورقادى

ورق بتفجعة تنوح أليفها غلس الدجنة فى ذرا أعواد

ولقد أزجّى الهم حين ينوبنى والشوق يقدح فى الحشا بزناد

بمدامة ورث الزمان لبابها عن ذى الأوائل من أكابر عاد

وأجاب ثانية بأنه يشربها لينعم بها شبابه :

نعم شبابك بالخمر العتيق ولا تشرب كما يشرب الأغمار من ماذى

وأجاب ثالثة بأنه يشربها لأنه يدرك شيئاً لم يدركه الناس ، وهو أن شبابه إلى تصرم وانتهاء ، وأيامه إلى نفادٍ وانقضاء ، ونظره إلى الناس احتقارٌ وازدراء :

وهان على الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالى مرصدات لمدتى فبادرت لذاتى مبادرة الدهر

ويقول إنه يشربها ليستنصف بها الأيام من أحداثها :

فانف الوقار عن المجون بقهوة حمراء خالط لونها أقمار
فاستنصف الأيام من أحداثها فلطالما لعبت بك الأقدار

فتتمنى لو دانت لصاحبك الأقدار وأسعفته الأيام ليقلع عن هذه العادة وليترك هذه الخمر التى يلهج بذكرها ويحسوها فى كل حين . ولكنك تعرف أن كل ما ذكر ليس إلا أعذاراً وقد يكون أكثرها مختلقاً ليسوّغ بها شربه إياها ، إذ تراه يغدو على شربها ، وقد انتفت حالة الهم ، ومعاندة الأيام ، وواتاه الدهر بما يشتهى ، ودارت أيامه بالسعود ، وإذا صاحبك بهذه الحال لا يرضى بها تأتيه بالكوب الصغير بل يطلبها بالكبير :

إسقنى إن سقيتنى بالكبير من لذيذ الشراب لا بالصغير
قد تدانت لنا الأمور كما نهـوى وذلت لنا رقاب الدهور

وهو شاربها فى حالتى يسره وإعساره :

نخمرة أنت لها رابع فى حالتى يسر وإعسار

وتعلم أن الأمر جد إذ يقول :

إنما العيش فى مباكرة الخمـر وشكر يدوم فى كل حاله

على أنه يكاد يجيبك بالصدق إذ تكثر عليه اللوم :

لا عيش إلا المدام أشربها مغتبقا تارة ومصطبحا
يا صاح لا أترك المدام ولا أقبل فى الحب قول من نصحا

كاد يقارب الصدق ، ولكنه يصدق الصدق كلّه إذ يقول لك شارحاً السبب الذى يجعله يكلف بهذا الشراب ويبذل فيه ماله وجاهه .

ألا لا تلمنى فى العقار جليسى ولا تلحنى فى شربها بعبوس
لقد بسط الرحمن منى مودة إليها ومن قوم لدى جلوس
تعشقها قلبي فبغض عشقها إلى من الأموال كل نفيس

هذا هو الصدق وقد دار عليه النواسى كثيراً . فهو يشربها لأنه أدمن تعاطيها بعد أن خلق بمزاج يهش إليها . وقد يتوهم بعض الكاتبين الكرام أن النواسى يبطن وراء ذلك هماً وحزناً دفيناً [١] يُغشيه بستارٍ من الاستخفاف « واللا أباليه » . ويشرب الخمر لينسى هذه الهموم والأحزان الدفينة ، كما يصنع الخيام ، ويجىء هذا الوهم من أعذار النواسى التى أسلفنا القول عنها ، والتى منها الهم . وليس من المستبعد أن يلمّ به طائف من

(١) من هؤلاء الأستاذ الفاضل أنيس القدسى — فى كتاب أمراء الشعر العباسى — فقد جعل من النواسى شاعراً مفرطاً فى التشاؤم .

هم فيشرب كأساً لينساه . بل لابُدَّ من ذلك . وأية حياة تخلو من هموم وأشجان — ولا سيما حياة الشعراء ذوى الحس المرهف — ولكن تقدير مذاهبهم لا يكون بالنظر إلى هذه الحالات الطارئة ، وإنما هو بالنظر إلى حياتهم كسلسلة تامة ، بصرف النظر عن بعض حلقات لا بُدَّ أن تجىء بها لأنها حياة إنسان قبل كل شىء . وفرق ما بين خمر النواسى والخيام . إن الخيام يشربها وأذنه للغيب تتسمع أصداء المجهول علّها تتلقف أجوبة عن الأسئلة الحائرة عن العلة والمعلول ، وما كان وسيكون . وقلبه مشغول بالكون وامتداده ، والأبد ونهايته . أمّا النواسى فأذنه للنغم ، وعينه على الوجه الصبيح ، والكثبان المهيلة ، وقلبه مشغول بما كان وسيكون — ولكن من صدٍ ونفار ، وقضاء لبانات وأوطار . ولا شىء خلاف هذا

فالنواسى هو السرور ومجالسه هى التى يقول فيها :

وبجلس ماله شبيه حل به الحسن والجمال
يمطر فيه السرور سحاً بديعة مالها انتقال

وهو الذى يقابل الشعراء المفكرين المتشائمين فى الحياة ، ويجىء مضاداً لهم . ولم يرتفع النواسى فى ملذاته عن رغائب الحسن

القريبة التناول . ولم يشغل باله وخاطره فى غيرها ، وفى غير الحديث عنها . حتى الطبيعة إذا صار إلى وصفها لم يستطع أن يصف منها إلا الجانب الذى يراه طالب هذه اللذائذ . ففيها وردٌ وريحان ، وفيها ماءٌ وأغصان . وهذا مما يعين على الشراب فكأن هذه الطبيعة حانةٌ لرواد الحانات ، بل هى ليست شيئاً . وخيرٌ من وصفها وصف الخمر .

وليس من الغرابة بعد هذا أن تمر بديوانه فلا ترى فيه وصفاً للنسيم المنعش الذى تغنى به الشعراء .

ويجىء مع هذا طبيعة عشقه . فهو العشق الذى ينظر فيه إلى جانب اللذة والمتاع ، ويحرص فيه على أن ينفى منه كل ما يبعث حزناً أو هماً ، فلم يعرف عنه وهو المفتون بالجمال أنه عشق وتوله بالعشق . وعشقه « جنان » مع أن أهل عصره كانوا يشكون فى صدقه ، قد جاء فى أوائل الصبا ، وساعد على تلهبه وقدة الشباب ثم همد سريعاً وانطفأ .

وكذلك الشأن فى حديث هذا الشاعر مع أصدقائه وعُشرائه ، فهو معهم فى مثل أخلاق النديم ، يلقاهم فيسمعهم ما يحبُون أن يسمعوه . فهو يقول للخليع إذ يلقاه : « أنت أشعر أهل زمانك

فى الغزل إذ تقول » . و يروى أبياتاً من شعره[١] و إذا تناشدوا وأنشد العتاهى قال : هذا المطمع المتنع . ولكن إذ يتفرق هؤلاء الخلطاء والعشراء فليس أمره إلى كبيرهم :

لا تبك بعد تفرق الخلطاء ... واكسر بمائك سورة الصهباء

كذاك إنى إذا رزئت أخاً ... فليس بينى وبينه سبب

لا تحزنن لفرقة الاخوان ... واقرِ الهموم بمذهب الأحزان

وعلّه لم يرد عدم الوفاء . ولكن طبعه أن يُتقى من درب حياته أشواك الهموم والأحزان .

وأين يأتى حديث الزهد من هذا المزاج وهذه الطبيعة وليس فى هذا تنافر ، و إن جاء النغم ناشزاً من عدم المران عليه وسماعه من هذا الشاعر ، فالنواسى شاعرٌ تتحكم به الأعصاب كما أسلفنا ، وليس هو برجل فكر أو مذهب من مذاهبه — أى الفكر — يُطيل عنده وقفته ، و يعمل فيه منطقه .

ومن الظلم أن نحمل أعصاب النواسى ونطالبها بفلسفة ، فيما عدا الحديث العابث فى الخمر واللهو وما يتبعهما من مُجانة ، إذ كنا لا نستطيع أن نقول للنواسى فى معرضٍ من معارض الفكر أصبت

(١) الأغانى جزء ٦ صفحة ١٧٩

أو أخطأت . ولا هو يطلب ذلك منا . ولكنه يطلب ويلحّ فى الطلب . ونستطيع أن نقول له أجدت فى هذا الوصف وأبدعت فى الشعر وأطربت . وبذلك نريح أنفسنا من عناء لا طائل تحته فى البحث فى ديوانه عن أبياتٍ تستهدف غايات فلسفية ، أو هى من أبيات الحكمة ، ثم نتخذها دليلاً على أن النواسى كانت له فلسفة وكان حكيما . . .

شاعرٌ جديد

تطوَّر الشعر ببغداد وفى ظل الترف ، ورق فى معناه ومبناه عما كان عليه فى الشام ، وفى أواخر الدولة الأموية . فلا سبيل إلى مقارنة شعر النواسى والخليع والعتاهى ورفاقهم بشعر الأخطل وجرير . إنّ شعر الدولة الأموية يلتفت إلى وراء ، وهمُّ أصحابه أن يقاربوا الصنعة الجاهلية . أما شعراء الدولة العباسية فجهدهم أن لا يأتوا بالصنعة الجاهلية وطرائق الجاهليين .

وحينما قدم النواسى بغداد لم يكن فيها من يتبع الطريقة « التقليدية » من وقوف على الأطلال ومخاطبة الدمن والنياق . وقد جانب هذا وغايره الطبقة التى سبقت طبقته ، وهى طبقة

بشار ورفاقه . فكان النواسى قادراً على سلوك الطريق الجديدة المهدة دون ضوضاء أو شغب . ولكنه آثر أن يسلكها بضوضاء وشغب ، وآثر أن يسلك الجانب الوعر الذى قلما كان يرتاده أحد من الشعراء ، وإذا ما ارتادوه فهم يحسبون الحساب كله لقالة الناس وآرائهم . أما الطريق الممهدة فهى وصف الواقع ، وتصوير الحياة التى يعيشها الشاعر . وأما الجانب الوعر فهو وصف الخمر والملهى والدعارة . ووصف الواقع أراده النواسى للصدق . أما وصف الخمر وما يتبعها فقد أرادة للصدق أيضاً ، ومع الصدق ميل غير قليل إلى حب الشهرة .

إن شهرة النواسى تستمد من قوة شعره ، وبراعة وصفه وتصويره ؛ وتستمد أيضاً من هذه السيرة الداعرة . بل هى مدينة لهذه السيرة أكثر من دينها لقوة الشعر . وما كان ليخفى على النواسى — وهو الذكى — أية شهرة يمدها له سلوكه هذا إلى الجانب الذى يتهيبه الشعراء « فقد كان أسْيَرَ الشعراء شعراً » كما يذكر ابن رشيق فى العمدة .

ويلوح لقارىء ديوانه أنه أطال البحث عن هذا المذهب الجديد ، وأنه أخذ فى المذهب القديم ولو قليلا ، فهو يقول :

صفة الطلول بلاغة القـدم فاجعل صفاتك لابنة الـكرم

ثم يقول فى ختام هذه القصيدة بعد أن يصف الخمر :

وإذا نعت الشىء متبعا لم تخل عن غلط وعن وهم

وهى أعذار عن وصف الخمر ، وتدليل منطقى على أن الشاعر أقدر على وصف ما يراه من وصف الشىء الذى لم يره . وفى الشطر الأول من البيت السالف مذاراة للقدماء بأن نعت الطلول بلاغة ، وهى بلاغة اختص بها الأقدمون .

ويذكرون أنه عرض على بشار قصيدته فى نعت الخمر ، وفى هذا دليل على نظمه إياها أول مجيئه إلى بغداد ، وإن كنت أشك فى أنه أدرك بشاراً فقد توفى عام ١٦٨ ﻫ وفيها يقول :

مالى بدار خلت من أهلها شغل ولا شجانى لها شخص ولا طلل

ولا قطعت على حرف مذكرة فى مرفقيها إذا استعرضتها فتل

بيـداء مقفرة يوما فأنعتها ولا سرى بى فأحكيه بها جمل

لا الحزن منى برأى العين أعرفه وليس يعرفنى سهل ولا جبل

لا أنعت الروض إلا ما رأيت به قصراً منيفاً عليه النخل مشتمل

ولا نعرف أطالت مدة بحثه عن مذهبه الجديد فى النظم ، ومشاورته لنفسه فى النظم فيه ، ومخالفة طريقة الأقدمين . ولكننا نرجح أنه أخذ فيه ببغداد .

وقد نظم النواسى الشعر بطريقة الأقدمين فهو يقول فى قصيدة:

إلى الله أشكو حب من جل نيله ... على كلام من وراء جدار
صبرت لها حتى إذا ما تفجرت ... بثور الهوى حولى وكان خمارى
جعلت ردائى السيف ثم طرقتها ... مفاوض أهوال خليع عذار
فكدنا ولما غير أن شفاهنا ... تعاطت خليطى سكر وعقار
وودعتها صبحا ولم أنس صدها ... وقد بادلتنى خاتما بسوار

وهى قصيدة عامرة ، ولكن ليس فيها شىء من روح النواسى ، وإنما هو ينظر فيها إلى عمر بن أبى ربيعة وجميل وهذه الطبقة . ومتى كان النواسى يشتمل على السيف وهو ذاهب إلى لقاء من أحب ليبادلها سواراً بخاتم أو خاتماً بسوار ؟ وهل تتسع بغداد والبصرة أو تتطلب الذهاب وهو مشتمل على السيف للقيا الأحباب ؟ .

انتهى من هذه المرحلة التى وقف عليها قليلا . وبعد أن كان يرى أن صفة الطلول بلاغة الأقدمين ، أخذ يهاجم هذه البلاغة ويشنع عليها وعلى أصحابها بهوى ، ويشايعهم برأى . وأخذ يدلل على أن وصف الخمر خير من وصف الطلول والنوح عليها . ومن لم يقنعه التدليل ركبه بالسخرية ، ودعاه إلى الإغراق فى وصف الخمر يفعل هذا ومعه ميل إلى حب

الشهرة . وتفصيل ذلك أن بغداد كان يتقلب عليها من الشعراء فى الفـترة التى عاشها النواسى ثلاثة شعراء كبار : أبو العتاهية ، والحسين بن الضحاك ، وأبان اللاحق ، أما أبو العتاهية فقد كان غمر البديهة . ولعله أقدر من عرفت العرب من شعرائها على الارتجال . وقد كان يجيد شعر الزهد والمديح ، وأما اللاحق فقد انقطع للبرامكة ، ونظم كليلة ودمنة شعراً ، ومعنى انقطاعه للبرامكة إجادته للمديح أيضاً . وأما الضحاك فقد كان يجيد فى أكثر فنون الشعر ولا سيما الخمر والغزل . ولكنها إجادة ليست بالمتقطعة . وكان النواسى يعلم أنه لا يجيد المديح إجادة العتاهى — على الأخص — . وأما الغزل فما نظنه كان يجهل أن شعره فيه تنقصه عواطف المحبين حقاً . وقد جرب نفسه فى البصرة فلم يأت منه بكبير طائل ، وهو القائل فى جنان :

وجه جنان رياض دنيائى ترتع فيه ظباء أهوائى
تصطادها أكلب الصدود إذا يدعو إليها الهوى بإيماء

أهو وجه محبوب ، أم ساحة صيد . فلم يبق إلاّ وصف الخمر والإغراق بهذا الوصف حتى يعرف بأنه شاعرها، وكان له ذلك . وكان يرى لنفسه الحق وقد انقطع إليها أن ينهب كل معنى يخاله

طريفاً . فهو ينهب معانى الوليد . وإذا أعجبه معنًى من معانى الخليع ، ادعاه لنفسه ، وأخذه منه قوة وعنوة . ثم ينظمه بشعرٍ سائغ قريب إلى الأنفس فيعرف أنه صاحبه . سمعه مرة ينشد :

حتى إذا أسندت فى البيت واحتضرت عند الصبوح ببساتين أكفاء
فضت خواتمها فى نعت واصفها عن مثل رقراقة فى جفن مرهاء

قال الحسين فصُعِق صعقة أفزعتنى ثم قال : « أحسنت . هذا معنًى كان فكرى لا بُدّ أن ينتهى إليه وسترى لمن يروى ألى أم لك » فأخذ البيتين بجملتهما . وأنشده مرةً هذا البيت :

تخاله نصب كأسه قراً يكرع فى بعض أنجم الملك

فأنشده النواسى بعد أيام لنفسه :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

فقال له الخليع : « هذه مُصالبة يا أبا على » فكان جوابه : « لا يروى لك فى الخمر معنًى جيد وأنا حى » .

وكان النواسى يقول له بعد أن يُطرى شعره فى الغزل ويرد عليه الخليع : وأنت ألا تفارق مذهبك فى الخمر ؟ : « لا والله وبذلك فضلتك وفضلت الناس جميعاً » .

ويروى «الأغانى» أن أبا العتاهية طلب إليه أن يكفَّ عن قول الشعر فى باب الزهد ، كأنما هذا الباب حرم على غيره ، وكأنما

تقاسموا — ضمناً — أبواب الشعر ، فمن صار إلى غير بابه فقد بغى واعتدى . وقد روعى فى هذا التقسيم حال الطبع والمزاج .

وجدّ النواسى فى مذهبه الهازل ، وأخرجه الجدُّ عن حدود الاعتدال ، فهو زارٍ على كل ما لا يتصل بمذهبه الجديد ، وطريقة الشعر القديم متصلة أوثق اتصال بحياة العرب وعيشهم فى البادية . ولهذا فهو ساخطٌ على هذه الحياة وعلى هذه البادية ، ولا يرى أنها خليقةٌ بغير هذا السخط والازدراء . وهو كلفٌ بمذهبه الجديد فى وصف الحياة التى يحياها ، حياة بغداد ، ووصف الخمر ، كلفٌ بهذه الحياة وهذه الخمر ، مُدلٌّ حتى بمساوئهما ، إن أحوج الأمر ، وشدّ ما كان يحوج . والتدليل على هذا من شعر النواسى يقضى بنسخ معظم ديوانه لأن أكثر شعره يجرى على هذا السنن .

ومن هنا كانت تجىء سخريته مؤلمةً قاسية ، لأنها للجدّ لا للفكاهة . فأنت تضحك منها ولكنك تشعر أن الشاعر لم يسقها لهذا ، وإنما ساقها للإيلام . فقد كانت ثقيلة على الذين يركبهم بها « وهم العرب » ، والمحافظون منهم على القديم ، والمؤثرون له بوجه خاص ؛ وخذ مثلاً منها ، فهو يقول :

لا تنس لى يوم العروبة وقفة تودى بصاحبها بغير فساد

ويهولك هذا المقطع ، ويشوقك إلى الجد الذى وراءه ، ولكن أى عبثٍ وأى سخرية إذ يقول :

يوما شربت وأنت فى قطربل خمراً تفوق إرادة المرتاد

ويقول فى قصيدة يصف النذل الذى جاءهم بالخمر :

فجاءها مستمداً « كالحارث بن عباد »
قد جال الكم منها كنازع فى قتاد
فسل منها بزالا فسال مثل الفصاد

وهى صورة عابثة ومضحكة ، ولكنها على عبثها مؤلمة ، فما كان فريقٌ من العرب ليرتاح إليها ، ومثلها قوله يخاطب الخمر :

فقد ظفرت بصفو العيش غانمة كغنم داود من أسلاب جالوت

وقوله وهو النهاية فى توقير « الخمار » :

قالت كذبت على طيفى فقلت لها إذن فعاديت يا مكنون خمارا

وأكثر ما تجىء هذه السخرية اللاذعة فى سبيل تأييد مذهبه الجديد ، مثل قوله الذى يزرى به فى الوقوف والواقفين على الأطلال :

قل لمن يبكى على رسم درس واقفا ما ضر لو كان جلس

أو قوله :

سقياً لغير الخيام والطلل وغير عيرانة من الإبل
عجبت من نعتها وناعتها وأى نعت يكون فى الجمل

ولا مراء فى أن القدامى كانوا يألمون من هذه الأبيات ، ويذكرون عند قراءتهم الشطر الأخير « وأى نعتٍ يكون فى الجمل » الآية الكريمة «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» فيزيد ألمهم . وأية سخرية فى هذا الصورة التى جاء بها للتعريض بالشعر العف والحب العذرى :

وبصرية أبصرتها فهويتها	هوى عروة العذرى والعاشق الهندى
فلما تمادى هجرها قلت واصلى	فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندى

ويكثر فى لذعاته مثل هذا التضمين الساخر الذى يخرج عن معناه الذى وضع له :

فلما أن وضعت عليه رحلى	تغنى منشداً شعر امتداح
ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين بطون راح

وهى سُخرية ما كنا لنجىء بها لولا أن البيت الأخير تذكره العرب « كأمدح بيت قيل » . وكل فكاهاته تجىء فى هذه المعارض كاوية وهى للإيلام أولاً . وله بعض الفكاهات التى تضحك ولا تؤلم ولكنها قليلة وأكثرها مما صوّر وهو فى البصرة .

وليس المعول فى تقدير قيم الشعراء والأدباء على سلوك طريقة جديدة أو قديمة ، و إنما هو على مقدار الإبداع فى هذه الطريقة . فأين كانت منزلة النواسى بين شعراء عصره ؟

لقد كانت منزلة رفيعة ، وشهرة ضخمة ، وجماعة عصره لا يفضلون عليه إلا شاعراً واحداً هو أبو العتاهية . فهم يقولون إن النواسى أشعر أهل زمانه ، ولكن العتاهى أشعر الإنس والجن . وكان النواسى يقرّ له بهذه المنزلة ، فهو يقول على ما يروى أبو الفرج : « ما رأيتــه — أى العتاهى — إلاّ خلتنى أرضاً وأنه سماء » .

ويقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس ، ولا أفصح لهجة مع حلاوةٍ ومجانبة استكراه » ويقول النظام : « هذا الذى جمع له الكلام فاختار أحسنه » .

وأبو العتاهية — أمير الشعر فى هــذه الفترة — « كان يقدمه[1] » ويقول الجرجانى فى الوساطة: إنه و بشارا أشعر المولدين . ويروى ابن رشيق فى العمدة عن الجاحظ مثل قول الجرجانى : « ما نعرف شاعراً مولداً هو أشعر من بشار وأبى نواس » .

ونسوق هــذه الأقوال وهى نتف قليلة من أقوال كثيرة لنبين المنزلة التى بلغها النواسى فى نفوس معاصريه ، وهى منزلة رفيعة بلغها بحق وعن جدارة بهذا الشعر الذى بين أيدينا ،

(١) تاريخ بغداد الجزء الرابع

والذى على فرط اعتنائه بتنقيته ، لا يخلو من ركاكة — بعض الحين — أشار إليها صاحب الوساطة ، ولكنها من القلة بحيث لا تضير هذه المجموعة والثروة الضخمة من شعره الذى هو مفخرة من مفاخر الشعر العربى وإن آلم معاصريه بزرايته بعاداتهم وتقاليدهم شأن كل جمود .

وقد كان من جنايات مذهبه عليه أن رماه العرب بالتعصب عليهم ، واتهموه بالشعوبية . ورماه الناس لمذهبه ولسخريته بالزندقة . ولكن هذه الشعوبية والزندقة ، واتهامه بهما بحق ، أو بغير حق ، لم ترزآه بعظمته الشعرية .

عصبية

بين الفرس والعرب

الذائع المشهور عن النواسى أنه يتعاجم فى شعره ، ويسخر بالعرب ، ويفخر بفارس ، ويسوق من يقول بذلك شواهد من شعره منها قوله :

فاسقنيها وغن صو نا لك الخير أعجما
ليس فى نعت دمنة لا ، ولا زجر أشاما

وقصيدته التي يقول فيها :

مسارحها الغربي من نهر مرمر ... فقطربل فالصالحية فالعقر
تراث أنوشروان كسرى ولم تكن ... مواريث ماأبقت تميم ولا بكر
قصرت بها ليلى وليل ابن حرة ... له حسب زاك وليس له وفر

ولم يكتف ابن منظور عن قصدٍ أو غير قصد بهذه الأبيات التي تدلُّ على تفضيل الشاعر لمواريث كسرى على مواريث العرب ، بل أبدل « تراث أنوشروان » كما جاءت بنسخ ديوانه بـ « تراث أبي ساسان » . فظهر النواسي أعجمياً يفخر بالفرس وأنه من أبنائهم

وروى ابن منظور في هذا المعرض أبياته المشهورة :

تدار علينا الكأس في عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مهى تدريها بالقسي الفوارس

وتكملُ الصورة ، وتظهر عصبية الفارسية على أشدِّها إذ يروون أهاجيه للعرب ، وتشنيعه على عيشهم . وأبياته في ذلك كثيرة ، بل هي بعض المرات قصائد أنشئت لهجاء الأعراب والأعرابيات . وقد هجا العرب قبيلة قبيلة حتى قيل إنه كان يتنقل بنسبه في قبائلها ليسهل عليه هجاؤها . ثم هجا الأعراب جُمْلةً واحدة :

دع الرسم الذى دثرا يقاسى الريح والمطرا
وكن رجلا أضاع العـــلم فى اللذات والخطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا
منازه بين دجـلة والــــفرات أخصها الشجرا
لأرض باعـد الرحمـــن عنها الطلح والعشرا
ولم تجعـل مصايدها يرابيعـاً ولا وحرا
ولكن حور غزلات تراعى بالملا البقرا
فذاك العيش لا سيدا بقفرتهـا ولا وبرا
بعازبه حرة يلفى بها العصفور منحجرا
إذا ما كنت بالأشيا ء فى الأعراب معتبرا
فانك أيما رجـل وردت فلم تجد صدرا
ومن عجب لعشقهم الـــجفاة الجلف والصحرا
تعد الشيخ والقيصو م والفقهاء والسمرا
جنى الآس والنسريــن والسوسان إن زهرا

واتخذ هذا ديدناً له ، فهو يستفتح كثيراً من قصائده بمثل هذا المعنى :

يأيها العاذل دع ملحاتى والوصف للموماة والفلاة
دارسة وغير دراسات وانف هموم النفس باللذات
ولاقها بأصدق النيات حتى تلاقى رب شاصيات
مختطبات لا مخفرات بنات كسرى خير ما بنات

ومثل قوله المتداول :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما ليس الأعاريب عند الله من أحد

إلى غير هذا — وهو كثير — وكله يصلح للاستشهاد على الحال التى يريدونها ، ويذهبون إليها من تهجمه على العرب وعادات العرب ، وتغنيه بحياة فارس وعيش فارس . وهو لهذا يُعدّ أعجميًّا ، وسواء أكان فارسياً أم عربياً . وسواء أدلّ وافتخر بحياة الفرس ليزرى بعيش العرب ، أم أزرى بالعرب وعيشهم ليتخذ منه سبباً لمدح الفرس ، فإن ذلك لا شأن له بقيمته فى عالم الشعر والأدب .

وعلى هذا فإننا نقول إنه لا سبيل إلى فهم النواسى فى هذه الناحية إلا بفهم البواعث التى دعت إليها .

فبيتا « اسقنى يا ابن أدها » هما من مقطوعة صغيرة يطلب فيها من نديمه أن يتجاوز عن وصف الدمنة والوقوف على الطلل ليسقيه و يغنيه . فالصوت الأعجمى فيها ليس المقصود فيه التعاجم و إنما هو الزراية على من يستبدل بالأصوات الجميلة ، والخمر التى وصفها « نعت دمنة وزجر أشأم » . والتجاوز عن وصف الطلول ونعت الدمن ، جزء كبير من مذهب النواسى ، دعا إليه وألح فى

الدعوة إلحاحاً شديداً حتى وصل الأمر إلى الخليفة ، فأمره بذكرها فذكرها وذكر معه السبب — وهو أمر الخليفة — الذى دعاه إلى وصفها خيفة أن يظهر بمظهر المناقض وهو الذى لا يعبأ بشىء . فالنواسى أراد الصدق فى مذهبه وقد حمله هذا الصدق على مركب وعر وهو مضطر .

وقد أراد أن يتجاوز عن طريقة الشعر القديم ، وأن يغرق فى وصف المناعم والمباهج التى بين يديه ، وتحت متناول سمعه وحسّه . وهذه المناعم والمباهج أكثرها أعجمية . فهو يذكر أهلها بالخير ، وطريقة الطلول والدمن عربية ، والزراية بها زرايةٌ بالعرب وذوق العرب ، فخيل إلى العرب أن الرجل يمدح الفرس ويتعاجم ، مع أن الرجل لم يردها أعجمية أو عربية ، وإنما أرادها حقاً وصدقاً . مثل قوله :

ليالى أروح على أدهم	كميت وأغدو على أشقر
خيول من الراح ما عريت	ليوم رهان ولم تضمر
براقعها من سحيق العبير	ومن ياسمين وسيسبر
ذخائر كسرى لأولاده	وغرس كرام بنى الأصفر
غدا المشترون على أهلها	فقالوا أتيناكم نشترى
خيولا لكم قد أتت فرهة	فمن بين أحوى إلى أحور
وقالوا لهم إنما خيلنا	سلافة كرم بنى قيصر
ولا تحمل اللبد لكنها	خيول لكل فتى أزهر

ففى هذه الأبيات مدح بالغ لعيشة الفرس والروم .

ولكن أية حال دعت إلى هذا ؟ أليس من الظلم أن ننسى مزاج أبى نواس ، وحُبَّه للخمر ، ومذهبه الجديد ، وعيش اللهو الذى يدعو له لنضع بدل كل هذا كلمة « أعجمية » ؟

إن العرب بعد الإسلام لم يكونوا أهل خمر . فلو أراد النواسى أن يمدح العرب فى هذه القصيدة وشبيهاتها فسبيله إما أن يلغيها ويستخير الله فى عدم نظم الشعر الذى لايقدر عليه ، وإما أن هذه الخيول المضمرة عليها اللبد يخرجها إلى ميْدان — كخيول عربية — فإذا هى تتراكض وتصهل فى الشرق والغرب ، تطأ أمجاد فارس وتقتحم ممالك بنى الأصفر ، وهو صادق فى هذا وفيه الفخر كل الفخر . ولكن هبه فعلها فأى شىء يبقى منه ؟ ؟ لا يبقى شىء . ويكون شاعراً آخر لا يكفى أن نضفى عليه روحاً غير روحه ، ونغير من أعصابه ، وننشئه غير نشأته الأولى ، وإنما يتحتم علينا أن ننقله من عصر الرشيد والأمين ، فهو غير منسجم معه ، لنضعه فى عصر آخر ، نصعد فيه إلى أوائل العصر الأموى ، أو ننحدر به إلى الدولة الحمدانية ليرافق المتنبى .

إن تهاجم النواسى وزرايته على عيش العرب أكثر ما يرد فى خمرياته . ولا شك أن إكثاره فيها ووصف مجالسها كان يحمل العرب على نقده فيبادلهم نقداً بنقد وتهجماً بمثله :

فدعونى فذاك أشهى وأحلى ... من سؤال التراب والأحجار
شغلتنى المدام والقصف عنها ... بقراع الطنبـور والأوتار

شغلته المدام وما فى المدام من لهو وقصف والعيشة العابثة التى جلبتها الحضارة — التى كانت مطبوعة بالطابع الفارسى — عن كل شى ما عداها ، عن الفخر بالعرب و بأمجاد العرب . إنه ليمدح أصحابها مهما تكن دياناتهم وأعراقهم .

وهناك سبب آخر غير هذه الأسباب كان يحمل النواسى على مدح الفرس ، والتباعد عن العرب ، والزراية على عيشهم .

ذلك هو الغزل ، فقد كان مباحا فى هؤلاء الجوارى اللاتى أكثرهن لسن من العرب . ثم الحالة النفسية للشاعر وهى أهم من كل هذا . يقول النواسى :

فهذا العيش لا خيم البوادى ... وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الزروب

فالبيت الثانى يشبه أن يكون جوابا عن حالة نفسية أو اجتماعية

اصطدم بها الشاعر . فهو جواب يقول فى معرض التبجح والفخر « نحن البدو » ولئن سألت ماذا يضير النواسى من هذا مادام عربى الأب ومعنى ذلك أنه عربى ؟

والجواب أن ذلك يضره كثيراً . فهو أولا صاحب لهو يهمه أن لا ينغص عليه أحد مجلسه بالفخر والمباهاة ؛ وثانياً وهو الأهم أنه ليس بذى حسب يستطيع معه مجاراة المباهين . فأمه فارسية من أسرة وضيعة ، وأبوه مهاجر من دمشق من جند مروان . يقال إنه اشتغل فى الحياكة أو رعى الغنم . وليس هو من بيت يفخر به ، وقد أمضى النواسى عمره يتستر على نسبه . ولقى من مباهاة العرب بأسرهم وآبائهم وأجدادهم العنت حتى كاد يكره بغداده المدله بحبها لهذه العصبيات وسؤال السائل فيها : ابن من هذا ؟

فان سلمت وما قلبى بذى ثقة ... من السلامة لم أسلم ببغداذا
ما شئت من بلد دان منازهه ... لكن فيه قبيلات وأفخاذا
ليسوا كقوم إذا حاذيت مجلسهم ... أنفذت بالترك والاسماع إنفاذا
هناك لا تتخطى الأذن لا ئمة ... ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

وهذه القصيدة قالها على أثر عودته من الحج ولا أعرف من هم هؤلاء الذين لاتتخطى الأذن فى مجالسهم لائمة ، ولا يسألون جليسهم « من ذا ولا ماذا ؟ ؟ » ولكنى أرجح أنهم الفرس

ومجالسهم ، فلقد سبق للشاعر أن أطرى مجالسهم ومدحهم بأنهم لا يفخرون بها ، ولا يتباهون كما يصنع العرب :

ولفارس الأحرار أنفس أنفس ... وفخارهم فى عشرة معدوم
وإذا أعاشر عصبة عربيــة ... بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وعدت إلى قيس وعدت قوسها ... سبيت تميم وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم ... شراً فنطق شرهم محسوم
لا يبذخون على النديم إذا انتشوا ... ولهم إذا العرب اعتدت تسليم
وجميعهم لى حين أقعد بينهم ... بتــذلل وتهيب موسوم

وأحب أن يقف القارىء عند كلمة (تذلل وتهيب) التى ينعت بها الأعاجم ، أتراها تدلُّ على تعاجم ؟ ؟ .

وتتكرر هذه المباهاة ، ويكثرون عليه من الفخر ، ويثقل عليه ذلك ، حتى أصبح يشترط عليهم عدم ذكر الآباء والجدود والفخر بهم فى مجالس الشراب — على الأقل —

حقوق الـكأس والندمان خمس ... فأولهـا التزين بالوقار
وثالثها وإن كنت ابن خير الـــــبرية محتــداً ترك الفخار

وما عسى أن تصنع هذه الأوضاع الماثلة ببغداد ، أنخاذ وعصبيات وفخر بالآباء والأجداد ، وسؤال السائل — حتى فى مجالس الشراب — من هذا ؟ ؟ وابن من هو ؟ ؟ فى زمنٍ تتناحر فيه حضارة الفرس مع أمجاد العرب بالعصبية ، فى أعصاب

أديب كأبى نواس قُصَارى فخره ما قاله للخصيب يوم سأله — أيضاً — عن نسبه : « إنى امروٌ رفعنى أدبى » . أىْ رفعك أدبك ولكن سؤال السائل لا يزال يُطاردك . ابن من أنت ؟؟ وقد يكون السائل من حُثالات تميم أو أسد ، لا يملك فخراً بالحياة إلا أنه منهما . وقد ذكر الرواة أن رجلا اسمه حمدان ابن زكريا هجا النواسى بهذا البيت اللئيم :

أنت كما قد قيل فيما مضى   قد ذل من ليس له ناصر

إننا لمضطرون إلى الاستعانة بالفلسفة الحديثة وإدخال « مركب إدلر » « الشعور بالنقص» فى هذه القضية . فأبو نواس يشعر بنقصه فى مجال الفخر بالعصبيات ، ومركب النقص يجيز له إلى أبعد الحدود أن يتعالى على هذه العصبيات فقد قال فى نوبات متعددة من شعوره بهذا النقص :

ومن تميم ومن قيس ولفهما   ليس الأعاريب عند الله من أحد

وقال على لسان ندل فى خمارة :

وما شرفتنى كنية عربية   ولا أكسبتنى لا ثناء ولا فخرا

ومع هذا الكره الشديد للعصبيات لم يندفع معه ليفضل الفرس على العرب . فقارىء ديوانه لا يجد شيئاً من ذلك . فهو

لم يذكر من مناقب الفرس إلا ما يتصل بالشراب وعيش الحضارة ببغداد . ولم يذكر للأعراب إلا عيشهم النكد وصحراءهم الجدبة، لم يتعرض للعقل الفارسى والمناقب الفارسية و يفضلها على ماعند العرب . وهو يفرق بين الأعراب والعرب . فالأعراب سكان البادية لا صلة له بهم ولا وشيجة بينه و بينهم ، إنهم من البداوة التى يمقتها .

أما العرب سكان الحاضرة فقد كان لايضن عليهم بالمدح إن سكنت شياطين عصبياتهم ، وحبست عفاريت فخرهم «فى قماقمها» فهو يقول على لسان الخمر بعد أن ذكر لها أصنافاً من الخلق فرجته أن « لا يمكنهم منها » :

ولا السفال الذى لا يستفيق ولا ... غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا الاراذل إلا من يوقرنى ... من السقاة ولكن اسقنى العربا

وفى هذا مدح وأى مدح ، وهو غير متهم فيه بالتناقض من جماعة عصره لأنه : قال « وأين البدو من إيوان كسرى » . وكثيراً ما كان يقول مثل هذا :

طربت إلى خمر وقصف الدساكر ... ومنزل دهقان بها غير دائر
بفتيان صدق من سراة ابن مالك ... وأزد عمان ذى العلا والمفاخر

وإذا جد الجد وكان لا بد من الفخر بالعصبية ولها عن الكأس وخفتت أصوات شياطين الشعور بالنقص . فخر وأطال « باليمنية » كما رأى القارئ . أما الأبيات التى أوردها ابن منظور « قرارتها كسرى وفى جنباتها » فالظاهر أن العرب فى عصر الشاعر ودونه بقليل فهموها على حقيقتها وعلى خلاف ما فهمها ابن منظور وجماعته . فصاحب الرد على الشعوبية والمفاخر بالعرب حتى بعصيهم ومخاصرهم يوم الحفل (الجاحظ) لم ير فيها إلا أنها طراز فذ من التصوير لم يسبق إليه . وهى كذلك لا من حيث إنها طراز فذ ، ولكن من حيث إنها لا تمثل إلا التصوير الشعرى وليس فيها من التعاجم شىء . وفى الحق أن الاستشهاد بهذه الأبيات على أعجمية النواسى يمثل سوء ظن به فلا يذكر لفظة « عجم » حتى يتهم بالعجمة . وإلا فأى حرج على الشاعر إن رأى كأساً حفر فى جوانبها صورة كسرى ورجال من الفرس فوصفها على حقيقتها ؟ فقد وصفها فارسية غير مرة لأن فيها صورة فرس :

لخل بزالها فى قعر كأس	محفرة الجوانب والقرار
مصورة بصورة جند كسرى	وكسرى فى قرار الطرجهار

ثم وصفها صفة الفرس ولـكن صورها رجال من الهند :

بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها
كأن رجال الهند حول إنائها عكوف على خيل تدير متونها

ووصفها حيناً فإذا صورها من القسوس ذوى الصلبان ولعلهم من الروم :

ملس وأمثالها محفّرة صور فيها القسوس والصلب
يتلون انجيلهم وفوقهم سماء خمر نجومها الحبب

ومثل ذلك قوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتها بنجوم

ويقول صاحب العمدة : « وكان النواسى شعوبى اللسان وما أدرى ما وراء ذلك » ووراء ذلك ما بيناه . وابن رشيق كان حذراً فى نعته بشعوبية اللسان ، فما يجوز أن يوصف النواسى بأكثر من ذلك .

زندقـــــة

يسهل على المنقب فى شعر أى شاعر — مهما صلحت عقيدته واشتهر بتقواه — أن يقع له على أبيات تغمزه فى عقيدته وتقواه . ويسهل على المنقب أيضاً فى شعر أى شاعر اشتهر بإلحاده أن يعثر

له على أبيات تلحقه بذوى الكرامات . وأى شاعر أشهر بالتقوى من العتاهى ؟ ومع ذلك فقد ذكروا « أنه كان متذبذباً فى دينه[١] » وأنه قد تزندق فى كثير من الأبيات :

يا رب لو أنسيتنيها وهى ... فى جنة الفردوس لم أنسها

إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى مثالك
فحذا بقدرة نفسه حور الجان على مثالك

وأى شاعر اشتهر بالإلحاد فى العربية شهرة أبى العلاء وهو القائل:

أدين برب واحد وتجنب ... قبيح المساعى حين يظلم دائن
لعمرى لقد خادعت نفسى برهة ... وصدقت فى أشياء من هو مائن
يحدثنا عما يكون منجم ... ولم يدر إلا الله ما هو كائن

ومردُّ ذلك — على ما أعتقد — هو أن الشاعر يترجم عن عواطفه أولاً ، وهذه العواطف تسكن وتثور ، وترضى وتغضب ، فتجىء بحالاتها هذه التى يترجمها الشاعر شعراً ، بما يحمل على الإيمان ، وما يحمل على الجحود ، وفى الشىء ونقيضه . وقد يكون الشاعر لم يقصد هذا كله أو قصده فى لحظة ولم يقصده فى كل اللحظات . ويجىء مؤرخو الأدب فيقول أحدهم آمن الرجل ، ويقول غيره بل أغرق فى الإلحاد ، وكلهم يدلل على قولته

(١) الأغانى جزء ٥

بحديث لحظة من تلكم اللحظات التى مرت بحياة ذلك الشاعر. وليس هذا هو الحق والصواب، وإنما الحق والصواب أن تمزج هذه اللحظات التى تكوِّن حياة الشاعر، ثم يمزج معها حالة مزاجه، ويستخرج من هذا كله حديث الإيمان والجحود. وهكذا يجب أن يكون الأمر فى زندقة النواسى.

يقول الجاحظ: «وأما النواسى فقد كان يتعرض للقتل بجهده وقد كانوا يتعجبون من قوله:

كيف لا يدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره

فلما قال:

أحبب قريشاً لحب أحمدها ... واشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشىء يغطى على الأول[1]»، وكلمة الجاحظ صادقة، وليست كلها. فقد كان المجون يطغى على هذا الشاعر فيتعرض للقتل بجهده، ولكنه كان يأتى بأشياء تغطى على أشياء فتحتاج إلى غير قليل من التروى. فالتقوى ليست من طبيعة هذا الشاعر الماجن. ويذكر ابن منظور أن النواسى أنشد فى مجلس شراب:

يا ناظراً فى الدين ما الأمر؟ ... لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى ... تذكر إلا الموت والقبر

(١) الحيوان الجزء الرابع صفحة ١٤٥

فامتعض أصحابه وأعلموه أنهم منحرفون عن صحبته ، فقال لهم: ويلكم والله إنى لأعلم أن المجون يفرط على وأرجو أن أتوب فيرحمنى الله . ثم قال » :

أية نار قدح القادح وأى جد بلغ المازح

وأتم قصيدته .

ويقول ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء»: ومما كفر به أو قارب ، ثم ذكر بيتين يطول فيهما الاختلاف أهما له أم لغيره. وقوله فى مدح الأمين :

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبها خلقا وخلقا كما قدّ الشراكانِ

وقوله :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

ونحبُّ أن نسجل هنا أننا نشك فى البيت الأول الذى قيل إنه قاله فى الأمين . إذ لا يعقل أن يقوله فى خليفة ويذيعه بين الناس مراعاة للخليفة عند الناس على الأقل .

ويقول الجرجانى[1] : « لو كان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى النواسى من دواوين الشعراء ويحذف

(١) الوساطة صفحة ٦٢

اسمه » . ويقال هذا ويقال أكثر منه عن النواسى إذا أخذنا ظاهر مجونه ولحظة من لحظات حياته . ولكنه لا يجوز إذا أخذنا حياته تامة الحلقات . فبيت الشعر غير المؤمن فى أشعاره ، يستطيع دارس شعره أن يضع قبالته عشرات الأبيات المؤمنات إذا كان المعول فى تقدير زندقة الشاعر على هذا فحسب . وليس هو فى هذا ، وإنما هو فى الحالة النفسية التى هى من وراء شعر الزندقة والإيمان . فالحالة النفسية التى وراء بيت من الشعر يقوله (بشار) مثلاً هى غير الحالة النفسية وراء بيت فى معناه يقوله النواسى . وكأن الناس يفرقون بين الحالتين . فالعرب تقول آمن فلان وكفر شعره . وحالة النواسى النفسية لم تكن لتساعده على زندقة مغرقة وكفر ، ولكنها تساعده — أتم مساعدة — على التظرف بالاستهانة بألفاظ الدين .

فهو ماجن ، مفرط فى مجونه ، والمجون يستدعى بعض المرات ليزيد إمتاعه ، أن يستخف صاحبه بالألفاظ الموقرة للدّين . فالذى يقول :

حج مثلى زيارة الخمار واقتنائى العقار شرب العقار
عاطى كأس سلوة عن أذان المؤذن

لا يقصد من هذا حالة من حالات الزندقة أو الكفر. و إذا حُمِّل البيتان أكثر من حالة التظرف فى القول، والفكاهة التى أرادها مستملحة ، فقد ناءا به ولم يحتملاه . ولا يزال الناس فى كل حين يقولون مثل هذا فى مجالس أنسهم وغلبة السرور عليهم ثم لا يحسبهم الناس زنادقة أو ملحدين .

وكان النواسى لا يشك فى نفسه ولا ينكر منها إيمانها . ويطمع أن يغفر الله له ذنوبه ما زال مسلماً «مقراً بالله و بوحدانيته»

مالى إليك وسيلة الا الرجا وجميل عفوك ثم إنى مسلم

ترى عندنا ما يكره الله كله سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

وقد كان لا يحسب نفسه حتى من الخطاة

لم وعفو الله مبذو ل غداً عند الصراط

خلق الغفران إلا لامرىء فى الناس خاط

ونحن نصدق هذا ، لا لأن النواسى يقوله ، فقد يقوله على سبيل التقية ونفى الريبة — كما يزعم الجاحظ — بل لأنه يجرى وفاق طبعه ومزاجه .

ويطابق شعر النواسى ما ذكر الأغانى من أنه لم يكن يرى فى الزندقة أكثر من حديث تظرف :

وصيف كأس ، محدث ملك تيه مغن وظرف زنديق

ولم يكن يتصور إبليس أكثر من ظريف يعين على فساد .

لم يرض إبليس اللعين فعالنا حتى أعان فسادنا بفساد

وأين يقع هذا القول من قول بشار فى إبليس وتفضيله إياه على آدم ؟

وأشد ما روى للنواسى فى الزندقة ما رواه المرزبانى فى الموشح . وقد رواها الجرجانى فى الوساطة بعد أن أسقط البيتين الأولين .

وملحة فى اللوم تحسب أننى بالجهل أوثر صحبة الشطار
بكرت على تلومنى فأجبتها إنى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملامة قد أطلت غوايتى وصرفت معرفتى إلى إنكار
ورأيت إتيانى اللذاذة والهوى وتعجلا من طيب هذى الدار
أجدى وأحزم من تنظر آجل علمى به ضرب من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة من مات أو فى نار

وذكر المرزبانى[1] أن الجماز قال له : « يا هذا إن لك أعداء ينتظرون مثل هذه السقطات فدع الإفراط فى المجون » فقال: « لا والله » . فنمى الخبر إلى الفضل بن الربيع ثم إلى الرشيد فما كان بعد أسبوع حتى حبس ! ! والأبيات أعمق مما تعودنا أن نقرأه له فى هذه المعانى . وهو فيها يقصد فكرة ومسألة عقلية

(١) الموشح

يحاول أن يقيم البرهان عليها . . . ثم تجىء قضية حبس الرشيد إياه بسببها فتقوى الشك فى أنها موضوعة . على أنها لو كانت له فليست أكثر من حديث مجانة يستغفر الله منها، و ينيب بعد حين .

فحديث الزندقة — عند النواسى — كما رأى القارىء فى هذا الفصل هو حديث أعصاب متقلبة . وليس المستغرب منها هذه الحالات من الإيمان والتطرف الموفى على الزندقة ، و إنما المستغرب أن تكون إلى غير هذه الحالات ، ما برحت مضطربة غير مستقرة .

حج

وأخيراً سار إلى مكة حاجاً هذا الذى يقول :

حج مثلى زيارة الخمار ... واقتنائى العقار شرب العقار

وقال اليويو[(١)] :وجعل يُلبى بشعرٍ ويحدو به ويُطرب فغنى به كل من سمعه وهو قوله :

إلهنا ما أعدلك	مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك	لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	والليل لما أن حلك
ما خاب عبد أملك	أنت له حيث سلك

(١) الأغانى جزء ١٨ صفحة ٣٠

وفى هذه القصيدة — بوجه خاص — ما يدفع زعم من يتجنى عليه فيجعل حجه بسبب حجِّ معشوقته « جنان » ، ومن الجائز أن تكون ذهبت للحج فى السنة التى حج فيها وقد ذكر ذلك فى بيتين :

حججت وقلت قد حجت جنان   فيجمعنا و إياها المسير

وقوله :

وعاشقين التف خداهما   عند التثام الحجر الأسود

ولعل البيت الثانى للتصوير لا للحقيقة ، ولكن من الظلم أن نعتبر أن حجه كان بسبب ذلك ، إن صح أن جنان حجّت فى هذه السنة ،فالحج والتوبة وشرب الخمر والفجور أشياء قريبةمن طبيعة هذا الشاعر الذى تتحكم فيه العاطفة .

والسنة التى حج فيها النواسى لا يقال عنها أكثر من أنها السنة التى حجَّ فيها الفضل بن الربيع . وهذه سنة لا سبيل إلى تعينها إلا بحادث آخر لأن الفضل لم يحج بالناس .

يقول ابن مناذر الشاعر(١) : إن الرشيد حينما حج بعد إيقاعه بالبرامكة وحج « معه الفضل بن الربيع » وكنت أملقت فهيأت

(١) الأغانى جزء ١٧ صفحة ٢٥

قولاً وقصدته به يوم التروية فإذا هو يسأل عنى و يطلبنى فبدرنى الفضل فقال : « يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكة ومادحهم »، وقد كان البشر قد ظهر لى بوجهه فتنكر وعبس، فقال الفضل : مره أن ينشد قصيدته فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك　　فياطيب أخبار ويا حسن منظر

فما زالوا بى حتى قرأتها ثم أتبعت ذلك بأن قلت : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم » . فقال : « يا غلام الطم وجهه » فلطمت حتى أظلم ما كان بينى و بين أهل المجلس . ثم قال : « اسحبوه على وجهه . والله لأحرمنك ولا تركت أحداً يعطيك شيئاً » ، فانصرفت وأنا أسوأ الناس حالاً فى نفسى وحالى وما جرى على . ولا والله ما عندى يومئذ قوت عيالى لعيدهم ، فإذا بشابٍ قد وقف ثم قال : «أعزز على والله يا كبيرنا بما جرى عليك » فدفع إلى صرة فظننتها دراهم فإذا هى مائة دينار وقال « الصولى فى خبره » فإذا هى ثلثمائة دينار، فقلت: « من أنت جعلنى الله فداءك ؟ » قال : « أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير واعذرنى» . فقبلتها وقلت: «وصلك الله يا أخى وأحسن جزاءك»

وهذه خلة ليست بمستنكرةٍ من النواسى، كرمٌ و برٌ بالأصحاب .

وابن مناذر كان فى البصرة قبل أن ينتقل مرغماً إلى الحجاز . أدركه النواسى فيها ونشأت بينهما مودة يذكرها صاحب الأغانى فى حديثه عن ابن مناذر وعبد المجيد الثقفى الذى تهتك فى حبه . هذا الشاعر الأخير هو ابن بانة مولاة جنان فأية قربى عاطفية جمعت بين الشاعرين ؟

ويهمنا من هذه الحكاية أنها تُعيِّن السنة التى حجّ فيها الرشيد ومعه الفضل بعد مقتل البرامكة ولم يحج فى غيرها .

وفى طريق أبى نواس إلى مكة وقعت له الحادثة التى يرويها الصولى ورواها الذين نقلوا عنه « وهى اجتماعه بفتاة بدوية عند ذهابه ، ومعها فتيات كواعب بسنها عند إيابه ، وإنشاده إياها شعراً ما زال يحتال فيه عليها حتى سفرت وأبانت من محاسنها الخفية ما أطار البقية الباقية — التى تركتها ظباء السواد — من عقله . ثم احتالت الفتاة وصويحباتها عليه فأدخلنه غاراً « فضربن إزارى على باب غار فعدلت إليه ، وأدخلت فيه . وأبطأن علىّ ، وأنا أتشوف إلى دخول واحدة منهن إذ دخل علىّ أسود كأنه سارية . . .

وعاد النواسى إلى بغـداد فأقبل الناس — كالمعتاد —

« يباركون له فى الحج ، ويهنئونه بسلامة العودة وظنوا أن الأمر كله جد ، وأنه إن حجّ فقد زهد وقد تنسك ، وهو لم يرد كل هذا وإنما أراد الحجّ توبة من خطايا قديمة يحطها عن ظهره ليحمل غيرها .

حججت رجاء الفوز بالأجر قاصدا لحط ذنوب من ركوب الكبائر

ولم يرده نسكا وكان لا يزال له فى اللذائذ وطِلابها ولعٌ وشوق فهتف من أعماقه :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرى وأرجو وأخشى طيرنا باذا

أجلْ إنه ليرى . . . ويرجو ذلك ولكن :

ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطربل فقرى بنى فكلواذا

فعاد يواصل ما انقطع — ولعله لم ينقطع — من سيرته ، ويروى ظماً هذا القلب المعمور بحب الجمال .

نهاية المطـــــاف

سجن الشاعر

أمر الرشيد بسجن النواسى وأمر الأمين — فى خلافته — بمثل ذلك ، وقد أمضى فى سجن الأمين ثلاثة أشهر ذكرها فى

شعره فذكرها الطبرى فى تاريخه وذكرتها بعد ذلك كتب الأدب

مضت لى شهور مذ حبست ثلاثة كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر

أما مدة سجن الرشيد فلم يذكرها النواسى فى شعر ولم تذكرها كتب التاريخ . واكتفت الرواية الأدبية بقولها ، وأطال حبسه وأخرجه الأمين فى خلافته .

أما السجن فهو عقوبة « إدارية » كما نقول بلسان اليوم ، أوقعها الخليفتان بهذا الشاعر بسبب السياسة . ومن أسباب السياسة ما لا يجوز اطلاع الناس عليه . فلا بُدَّ من انتحال أعذار ، وخلق أسباب لتسويغ الموقف . وهكذا كان الشأن مع شاعرنا . فقد أُخذ بالخمر والمجون والزندقة حتى ذاعت هذه الأسباب ، وكادت تغطى على السبب الحقيقى . يقول ابن قتيبة : « وقال له الرشيد يا ابن اللخناء أنت المستخف بعصا موسى نبى الله إذ تقول :

فإن يك باق سحر فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

وقال لإبراهيم بن نهيك — رئيس شرطته — لا يأوى إلى عسكرى من ليلتـه . فأقام عند ابراهيم حتى مات هرون وأخرجه الأمين »

وذكر ابن جامع عن بعض أصحاب أبى نواس ورواته قال: «كان أبو نواس قال أبياتاً منها :

وقد زادنى تيها على الناس أنى　　أرانى أغناهم وإن كنت ذا عسر
ولو لم أنل فخراً لكان صيانتى　　فمى عن سؤال الناس حسبى من الفخر
ولا يطمعن فى ذاك منى طامع　　ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فبعث إليه الأمين وعنده سليمان بن أبى جعفر فشتمه أقبح شتم وقال: كيف تقول ولا صاحب التاج المحجب بالقصر وأنت الذى تتكسب بشعرك أوساخ أيدى اللئام ؟ فقال سليمان : وهو — يا أمير المؤمنين — من كبار الثنوية ، وشهد بذلك من كان موجوداً فأمر بحبسه » .

ومنهم من يذكر أن الأمين إنما حبسه على قصيدته التى أولها :

إسقنيها يا دفافه　　مرة الطعم سلافه

وقصيدته :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر　　ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

وقصيدته :

فجاء بها زينيــة ذهبية　　فلم نستطع دون السجود لها صبرا

وقد ذكروا أنه جاء به — بعد أن سمع هذه القصائد — وقال له : « أنت زنديق وكافر » وأمر بحبسه . واختلاف هذه

الأسباب يوهم القارىء أن الأمين حبسه غير مرة ، والصواب أن الحبس لم يكن إلا مرة واحدة فى زمن الأمين ، ومثلها فى زمن الرشيد .

وكان حبس الأمين إياه بسبب حديث خراسان الذى أسلفنا البحث فيه . وقد جمع صاحب كتاب « الوزراء والكتاب » هذه الأسباب كلها بعد أن ذكر كلمة الفضل بن سهل فكانت كأنها تعلات لا أكثر . كلمة الفضل هى السبب والعلة قال : « إن النواسى كان ينادم محمداً ويخص به وله معه أخبار مشهورة فقال الفضل ابن سهل يزرى على محمد به ويعيبه باستعماله إياه : كيف لا يستحل قتال محمد وشاعره يقول فى مجلسه ما لا ينكر عليه « ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر » ؟ فبلغ ذلك محمداً فأمر بإحضار النواسى وعنده سليمان بن أبى جعفر . وقد كان اتصل بمحمد عنه أنه قال قصيدته التى يقول فيها « وقد زادنى تيهاً » وقصيدته « إسقنيها يادفافه » فلما دخل عليه «ثم تم صاحب الكتاب ماذكره الطبرى من شتمه واتهامه بالزندقة ثم الأمر بحبسه . فظاهر من هذا الحديث أن السجن فى زمن الأمين لم يكن إلا مرة ، ولم يكن له من سبب غير كلمة الفضل بن سهل .

أما سجن الرشيد فلم تكثر فيه الروايات ، وتتنوع الأسباب ، كثرتها وتنوعها فى سجن الأمين . إذ كان السبب السياسى فيه لا يخشى من إذاعته ما يخشى من إذاعة السبب فى سجن الأمين من قدح فى الخليفة وسياسته . فالمعروف المشهور – وان اختلفت الرواية بعض المرات – أن الرشيد أمر بسجنه لقصيدته التى هجا فيها قبائل عدنان ، وأفحش ولم يعف عن قريش :

إن قريشـا إذا هى انتسبت   كان لها الشطر من مناسبها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها   إلا التجارات من مكاسبها

والخليفة من قريش ومن عدنان ، وأقرباؤه وعمومته منها . فلا شك أن هذه جرأة من النواسى قايل لها السجن .

ولم يعف عنـه لرشـيد ولم يخرجه ، و إنما الذى أخرجه هو الأمين ، فـكم مكث فى سجن الرشيد ؟ . .

ذكرنا أن النواسى مدح العباس منصرفه من الحج عام ١٩٢ للهجرة . وذكرنا أنه لم يحج فى الناس إلاّ هذا العام . فالسجن قد وقع بعد هذا التاريخ . والحجيج كان يقدم دار السلام فى محرم ، فالسجن أحرى أن يكون فى أواخر هذا الشهر . وقد توفى الرشيد فى اليوم الثالث من جمادى الآخرة عام ١٩٣ هـ فتكون مدة

السجن أربعة أشهر تنقص أو تزيد قليلاً . ومدة سجنه فى كلتا المرتين ليست بالبالغة فهى أشهر سبعة أو ثمانية ، ولكنها كانت ثقيلة على نفس رجل كأبى نواس تلهبه العاطفة ، وتفتك بصبره فهو يكتب إلى الفضل بن الربيع كثيراً يلحف عليه بالرجاء ويكتب إلى والديه ويكتب إلى كل من يتوسم فيهم الخير . وإنك لتشفق على الشاعر وتكاد تضحك من نفاد صبره إذ تراه يكتب إلى رجل اسمه عبد الله بن نعيم ليذكّر أخاه كاتب الفضل ابن الربيع ليذكّر هذا الأخير بأمره :

فاسبق أبا عبد الإله بها   واجعل لعقبك ذخرها نجلا
كلم أخاك يكلم الفضلا   وليبلنى حسناً كما أبلى
إنى وصلت بك الرجاء على   بعد المدى إذ كنت لى أهلا

ومثل هذا فى شدة اللهفة ونفاد الصبر ما كتبه إلى الحسين ابن عيسى بن أبى جعفر المنصور :

رفع الصوت فنادى   يا أبا عيسى الجوادا
كن عماداً يا ابن من كا   ن غياثا وعمادا
وتدارك جسدا قد   مات أو قد قيل كادا
قل له إن قال هل تا   ب نعم تاب وزادا
واضمن التوبة عمن   كلما أطراك عادا

ويحتاط للأمر فلعلّ هؤلاء العظماء ينسونه ، ويهملون غوثه .

فليبعث بأشعاره إلى عبيد الخادم مولى أم جعفر و إلى حسين الخادم مولى هرون ، و إلى غير هذين .

وكل ما نظمه النواسى فى سجنه وكتبه إلى من طلب عندهم الشفاعة ليس له كبير قيمة من الناحية الفنّية ، وإنما هو يمثل رجلاً ضيق الصدر ، نافد الصبر ، همّه أن يخرج من هذا الضيق الذى لم يعتده ولا تحتمله أعصابه بما فى ذلك القصيدة التى كتبها للرشيد :

بعفوك لا بجودك عذت لا بل ... بفضلك يا أمير المؤمنينا

ففى هذه ال « لا » المتكررة أثرٌ من حالة السجن ، واضطراب أعصابه . والأبيات الباقية كلها فى مثل هذا الاضطراب

فشفع حسن وجهك فى أسير ... يدين بحبك الرحمن دينا

فالمعنى فى هذا البيت سوقى وعامى جاء فى تركيب مضطرب متعاظل . والأبيات التى تكاد تكون مستملحة هى الأبيات التى كان النقاد القدماء يرون أنه أسف فيها . ومع أن فيها إسفافاً ففيها شئ من خفة روح النواسى ، لا تقع على مثلها فى سائر مقولاته وهو فى السجن قال يخاطب الفضل :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ ... ـك وعودتنيه والخير عاده

فارعوى باطلى وأقصر حبلى ... وتبدلت عفة وزهاده

لو ترانى ذكرت للحسن البصـــــرى فى حسن سمته وقتاده
المسـابيح فى ذراعى والمصـــــحف فى لبّتى مكان القـلاده
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى وتفطن لموضـع السجاده
لو رآها بعض المرائـين يوماً لاشتراها يعـدها للشهاده

أليس فى هذه الصورة التى رسمها لنفســه ما يُغرى على الضحك والفكاهة ؟

ونحب أن نشير إلى شىء وهو أن النواسى فى سجن الأمين أحب أن يصدق أنه إنما سجن للخمر وفى سبيل الزندقة التى هو منها براء فلم يذكر السبب الحقيقى وهو السبب السياسى ، لأن ذكره مما لا يجوز لاتصاله بسمعة الخليفة . فانصرف همُّه إلى تبرئة نفسه من ناحية « ما أشيع » من حديث الخمر والزندقة . وفى هذه التبرئة تبرئة للخليفة . ولا شك أن الأمين كان يرتاح لأقواله هذه ولاسيّما حين يقول إن الأمين منعه عن شرب الخمر ، ولعله كان يشربها وهو يقول :

نالنى بالمـلام فيهـا إمام لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فإنى لست إلا على الحديث نديما

إذ ليس المهم شربها أو عدمه ، وإنما الأهم أن يعلم الناس وأهل خراسان أن الأمين ليس كما وصف رجلهم ، يترخّص فى

الخمر ويقول شاعره : « ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر » ولا يعاقبه على ذلك .

وفاته

تختلف سنة الوفاة كما تختلف سنة الميلاد ، فهى فى عام ١٩٨ للهجرة على رواية الخطيب فى تاريخ بغداد ، بعد أن ذكر السادسة والتسعين والسابعة والتسعين بعد المائة . وهى ١٩٩ هـ على رواية ابن قتيبة . ونرجح رواية الخطيب ونظنها ١٩٧ هجرية لسبب واحد . وهو أننا لا نرى للنواسى شعراً فى النكبات التى توالت على بغداد فى هذه السنين ، ولا نحس له بوجود . فاذا كانت هى سنة الوفاة ، فتكون وفاته عن اثنتين وخمسين سنة . ونوافق فى ذلك ابن قتيبة ، لأنه قد ذكر أن هذا عمره وإن كنا خالفناه فى سنة الوفاة .

أما القصائد التى رويت له فى رثاء الأمين ، فالأرجح أنها منحولة . وأروع هذه القصائد القصيدة التى منها :

طوى الموت ما بينى وبين محمد ‏ ‏ ‏ وليس لما تطوى المنية ناشر

وقد ذكر صاحب الأغانى أنها لأشجع السلمى .

وليس من المعقول أن يعيش النواسى فى أيام الفتنة ولا يكون له فيها شعر ، وقد أكثر الشعراء من القول والنظم فيها . أضاع ؟ ؟ ولم لم يضع غيره وفيه هجاء للمأمون وقواده ؟ ولعلّ هذا الغموض فى سنة وفاته ، لأنها سنة وقعت فى هذه الأيام السود التى مرّت على بغداد .

ولم يذكروا العلة التى توفى منها والظاهر أنه اشتكى من أوجاع :

دبّ فى الفناء سفلا وعلواً ... وأرانى أموت عضواً فعضوا

وروى الشافعى — رحمه الله — قال : «دخلت على أبى نواس فقلت له : ما أعددت لهذا اليوم ؟ » فقال :

تعاظمنى ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

الثقة بالله . وإنها لنعم الزاد والعُدة .

ثم توفى وقبر فى مدافن الشونيزية .

عمان — شرق الأردن

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٤٥٣٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٢٩-٨	ISBN

١ / ٨٦ / ٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)